

تحليل ماركس و إنجلز لنمط الإنتاج الآسيوي وعلاقته بالمركزية الأوروبية

Marx and Engels' analysis of the Asian mode of production and its relationship to Euro centrism

خالد بالضياف¹

جامعة قاصدي مرباح - ورقلة -

مخبر علم النفس العصبي والاضطرابات المعرفية والاجتماعية العاطفية

beddiaf.khaled@univ-ouargla.dz

أ.د علي سعد الله

جامعة قاصدي مرباح - ورقلة -

Labidia.ali@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/03/19 القبول 2021/10/08 النشر على الخط 2022/04/15

Received 19/03/2021 Accepted 08/10/2021 Published online 15/04/2022

ملخص:

تأتي هذه الدراسة لتسلط الضوء على أحد أهم الأسس التي شكّلت التمرکز الأوربي عند كل من ماركس وإنجلز، وهي نظريتهما في نمط الإنتاج الآسيوي، وانعكاساتها في نظريتهما إلى مسألة الاستعمار الأوربي لمجتمعات الشرق، وهذا ما يؤكد بأن كل خطاب أو فلسفة أو نظرية في العلوم الإنسانية والاجتماعية تحمل ورائها أيديولوجيا، مهما حاولت هذه الفلسفة أن تكون علمية وموضوعية، وهذا ما يطرح عدة علامات استفهام حول علاقة الماركسية بالاستعمار والامبريالية والإستشراق، ويشكك في النظرة التي تشكلت في الأذهان حول ماركس وإنجلز، بالوقوف المطلق ضد الرأسمالية، والدفاع عن حقوق الطبقات الضعيفة، كما قد يعيد النظر في الخطاب الإنساني الذي تتبناه الماركسية، ويجعلها مجرد أيديولوجيا لا تتسم أبدا بالطابع العالمي، رغم أن ماركس نفسه، كثيرا ما هاجم الأيديولوجيا باعتبارها وعيا مزيفا بالواقع والتاريخ، فتصبح الماركسية بذلك مجرد نظرية لها إطارها الزماني والمكاني.

الكلمات المفتاحية: المركزية، الاستعمار، الماركسية، الأيديولوجيا، الإنتاج الآسيوي.

Abstract:

This study comes to shed light on one of the most important foundations that formed the European concentration in both Marx and Engels, which is their theory of the Asian production pattern, and its reflections in their view of the issue of European colonization of Eastern societies, and this confirms that every discourse, philosophy or theory in the human and social sciences It carries an ideology behind it, no matter how scientific and objective this philosophy tries to be scientific and objective, and this raises several question marks about the relationship of Marxism to colonialism, imperialism and orientalism, and questions the view that has been formed in minds about Marx and Engels, to stand absolutely against capitalism and defend the rights of the weak classes, as well as He may reconsider the human discourse adopted by Marxism, and make it a mere ideology that is never characterized by a universal character, although Marx himself has often attacked ideology as a false awareness of reality and history, thus Marxism becomes a mere theory with its temporal and spatial framework.

Keywords: Centralization, colonialism, Marxism, ideology, Asian production.

(1) المؤلف المرسل : خالد بالضياف البريد الإلكتروني: beddiaf.khaled@univ-ouargla.dz

1. مقدمة:

تُشكل الماركسية - بلا شك - حلقة أساسية من حلقات الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر، وكثيرا ما وُصفت بأنها فلسفة إنسانية عظيمة، أثبتت نجاحاتها في مقارنة العديد من المسائل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، غير أن فعالية تلك الفلسفة ونجاحها النسبي لم يحل دون اتهامها بالتمركز، ووصلتها بالمركزية الأوربية، وبالتسوية لحركات الاستعمار الأوربي في العصر الحديث، لاسيما عند مؤسسيها، ماركس وإنجلز، فبعدما بقي هذان المفكران لزمان طويل بعيدان عن الاتهام بالمركزية الأوربية والعنصرية والاستشراق، بدأت أصابع الاتهام توجه لهما، حيث لم تبقى تهم التمركز الأوربي - وما في معناه - حكرًا على المفكرين المحسوبين على الرأسمالية. بل مست تلك التهم مفكرين محسوبين على اتجاه اليسار، فقد دارت في الأوساط الفكرية نقاشات وسجلات حول مدى تأثير مؤسسي الماركسية بحركة الإستشراق والمركزية الأوربية، فظهر تياران الأول يُورط ماركس وإنجلز في مستنقع المركزية الأوربية، والثاني يدافع عن الطابع الإنساني والعالمي لأراء هذين المفكرين، إن اتهام ماركس وإنجلز بالمركزية الأوربية من شأنه التشكيك في الأصول العلمية للمادية التاريخية، التي تعتبر العصب الرئيسي للنسق الماركسي، فإذا كانت المادية التاريخية ملوثة بعقدة المركزية فهذا يدل على كون تلك المادية، مجرد أيديولوجيا، وماركس نفسه كثيرا ما هاجم الأيديولوجيا باعتبارها وعيا مزيفا بالواقع والتاريخ، وبالتالي فهي لا تتسم بالطابع العالمي، لأنها مجرد نظرية لها إطارها الزماني والمكاني ومن غير الممكن أن تعمم.

هدف الدراسة :

إن هذه الدراسة تأتي لتسلط الضوء على مظاهر المركزية الأوربية في الخطابات الماركسية، ولذلك فهدفها هو استقصاء أحد أهم الأصول المشكَّلة للتمركز الأوربي عند ماركس و إنجلز، وهو نمط الإنتاج عموما، ونمط الإنتاج الآسيوي على وجه الخصوص، كما تهدف هذه الدراسة إلى إثبات أن كل فلسفة أو نظرية في العلوم الإنسانية والاجتماعية خاصة، تحمل وراءها أيديولوجيا مهما حاولت هذه الفلسفة أن تكون علمية وموضوعية، وهذا ما يطرح عدة علامات استفهام حول علاقة الماركسية بالاستعمار والامبريالية و الإستشراق.

منهجية الدراسة :

أما عن منهجية هذه الدراسة فقد استعملنا فيها المنهج التحليلي، وذلك لتحليل بعض نصوص ماركس وإنجلز، إضافة إلى استعمال منهج المقارنة من خلال مقارنة نصوص ماركس وإنجلز ببعض الكتابات الإستشراقية، أو ببعض النصوص لفلاسفة يُنسبون إلى المركزية الأوربية.

أهمية الدراسة :

وتكمن أهمية هذه الدراسة في : تبين أن الكثير من المفكرين الذين غالبا ما يعتبرون رواد النزعات الإنسانية، والنضال لصالح الفئات الضعيفة، لم ينجحوا في اتقاء العنصرية والتعصب والتمركز نحو الذات الأوربية والغربية عموما. إضافة إلى تبين أن ماركس وإنجلز لم ينجحوا في دراسة مجتمعات الشرق دراسة موضوعية تلتزم بالمنهج النقدي التحليلي الذي اختاراه لنفسهما دون أن يقعا في التعميم والأحكام المسبقة .

كما تتمثل أهمية هذه الدراسة في تبين أن ماركس وانجلز لم ينجحوا في إحداث قطيعة معرفية مع البنى الثقافية الأوربية السائدة في القرن التاسع عشر، رغم محاولات تبرئتهما من برائن التمرکز الأوربي التي تتماهى مع الثقافة الأوربية. وهذا ما يدعو إلى إعادة النظر في الدراسات الإنسانية والاجتماعية التي لها علاقة بالماركسية والاتجاهات اليسارية من خلال خلخلة وتفكيك البنى المكونة لتلك الدراسات.

تساؤلات الدراسة:

إلى أي مدى يمكن القول بأن الفكر الماركسي ملوث بالمركزية الأوربية؟ وأين تتجلى المركزية الأوربية في النصوص الماركسية؟ كيف كان نمط الإنتاج أصلاً من أصول التمرکز الأوربي الماركسي؟ وهل كان مسار الفلسفة الماركسية إنسانياً كونياً أم أوربياً غربياً؟ وبعبارة أخرى هل تمثل الماركسية خروجاً عن النسق الغربي؟ أم تحليلاً له؟.

2. مفهوم المركزية الأوربية:

يمكن أن نعرض عدة تعريفات للمركزية الأوربية، حيث تُعرف مثلاً بأنها: "نسق ثقافي محمل بمعان ثقافية (دينية و فكرية وعرقية) تكوّن تحت شروط تاريخية معينة، إلا أن ذلك النسق سرعان ما تعالَى على بعده التاريخي، فاحتزل أصوله ومقوماته إلى مجموعة من المفاهيم المجردة التي تتجاوز ذلك البعد إلى نوع من اللاهوت غير التاريخي، ويمكن اعتبار التمرکز تكثف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدد يؤدي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصورات المتصلبة التي تنتج الذات المفكرة ومعطياتها الثقافية على أنها الأفضل".⁽¹⁾

يبدو من خلال النص أن المركزية أو التمرکز هو نوع من الشعور الثقافي والديني والعنصري نشأ في إطار ثقافي معين، محدد بأطر زمانية ومكانية، ثم تحوّل إلى أيديولوجيا كونية تلغي الإطار الثقافي التي نشأت فيه، وينتهي إلى القول بأفضلية الأنا وتقزيم الآخر، فالمركزية الأوربية هي عبارة عن أيديولوجيا مركبة من عدة عناصر متداخلة (دينية وثقافية وسياسية وعنصرية) توفرت ظروف تاريخية محددة لانصهارها، غير أنها أصبحت أيديولوجيا عالمية مطلقة ترفع من شأن الأنا وتُعظمه، وفي نفس الوقت تزدرى الآخر وتهمشه، وتسعى إلى تحطيمه وإلغائه. ويُعرف التمرکز الأوربي بأنه: "مجموعة رؤى ثقافية الطابع، تقوم على افتراض تواجد مسالك تطوّر خاصة لمختلف الشعوب لا يمكن إرجاعها إلى فعل قوانين عامة تنطبق على الجميع... وهي تقترح على الجميع محاكاة النمط الغربي بصفته الأسلوب الفعال الوحيد لمواجهة تحديات العصر".⁽²⁾

يظهر من هذا النص أن المركزية الأوربية نسق ثقافي يؤكد الخصوصية المطلقة لتاريخ أوربا، ويؤكد كذلك أن على كل الأمم التي تريد أن تبلغ درجة التقدم التي وصلتها أوربا أن تأخذ بنفس الأسباب التي انتهجتها أوربا، وفي نفس الوقت التخلي عن خصوصياتها الثقافية، باعتبار أن هذه الخصوصيات هي السبب في تخلفها. فأوربا هي الأفضل عرقاً وثقافةً وتاريخاً وديناً وإقليمياً، وبذلك تكون الثقافة الأوربية لا تاريخية أي صالحة لكل المجتمعات في شتى الأزمنة والأمكنة.

(1) عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص10.

(2) سمير أمين: التمرکز الأوربي نحو نظرية للثقافة، موفم للنشر، الجزائر، 1992، ص85.

إضافة إلى ما سبق، يمكن أن تُعرَّف المركزية الأوروبية بأنها: "الممارسات الواعية أو غير الواعية التي تركز على فرض الحضارة والمصالح الغربية عموماً، في جميع مجالات الحياة، على حساب باقي الثقافات والحضارات والشعوب، وبكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة"⁽¹⁾.

يظهر جلياً مما سبق بأن التمركز الأوربي هو عقدة ملازمة للأوروبيين بوعي منهم أو من غير وعي، أساسها اعتبار النموذج الغربي عامة، والأوربي خاصة هو النموذج الأوحده، والأصلح لكل البشرية، في شتى المجالات، ويجب العمل على تجسيده بكل الطرق والوسائل، فهي بذلك تعتبر العالم خارج أوربا والغرب عالماً من الفراغ الحضاري لا بد من ملؤه بالثقافة الأوروبية الغربية.

وهناك تعريف مماثل للتعريف السابق، يرى بأن المركزية الأوروبية هي: "العملية الواعية أو غير الواعية، التي من خلالها تشكل أوربا والافتراضات الثقافية الأوروبية بوصفها أو يفترض أنها المألوف أو الطبيعي أو العالمي... وبحلول القرن الثامن عشر أصبح هذا الإدراك لأوربا بوصفه علامة على التفوق وفي مواجهة ثقافات بقية العالم أصبح متوطداً بشكل ثابت"⁽²⁾.

يبدو من خلال هذا التعريف بأن ظاهرة التمركز الأوربي هي أيديولوجيا تقوم على التوقع حول الثقافة الأوروبية، والنظر إلى غيرها من الثقافات نظرة احتقارية، فهي في الوقت الذي تعظم فيه ذاتها، تستقبح الآخر وتصفه بالهمجية والبربرية.

من اللافت للنظر أن التعريفات السابقة جميعها تتفق على اعتبار المركزية الأوروبية أيديولوجيا تقوم على التمركز حول الذات الأوروبية فتجعل منها مركزاً للعالم، أما العالم خارج أوربا فهو مجرد هوامش وأطراف، وهي بذلك تعتبر بأن النموذج الأوربي هو النموذج العالمي والصالح لكل الإنسانية، بل يجب أن يكون الطريق الوحيد للتحضر والتقدم، وبذلك يمكن اعتبار المركزية الأوروبية ظاهرة ثقافية تختزل كل ثقافات العالم في أوربا، فهي تجعل الثقافة الأوروبية نموذجاً لشعوب العالم المختلفة. على أن هذه النظرة قد أكدها أيضاً أحد المستشرقين الغربيين صراحة عندما قال: "إن تشجيع التمركز حول الذات هو صفة طبيعة في الأوروبيين، كانت موجودة دائماً لكنها اتخذت الآن صبغة تتسم بالازدراء الواضح للآخرين."⁽³⁾.

ما يمكن أن نفهمه من هذا الرأي أن نزعة التمركز شيء شبه فطري لدى أغلب الأوروبيين، فاستقراء التاريخ يثبت هذا عند أغلب فلاسفتهم ومفكرتهم وأدبائهم، ولكنها اتضحت أكثر وتجلت بقوة بفعل حركات الاستعمار⁽⁴⁾ والرغبة في الهيمنة.

هذا ويعتبر مالك بن نبي بأن القرنين التاسع عشر والعشرين، هما منطلق المركزية الأوروبية بسبب المد الاستعماري، وهو ما نلمسه في قوله: "وفي هذا الجو المفعم بالتفوق نشأت النفسية الأوروبية، وظهرت كتابات تنظر إلى تاريخ البشرية وكأنه بدأ مع الإغريق والرومان ثم حدث فيه تقطع أو جمود ثم عاد للظهور في باريس ولندن من جديد"⁽¹⁾.

(1) عبد اللطيف الغامدي، المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الإنسان، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، 2014، ص 28.

(2) بيل أشكروفت (وآخرون): دراسات ما بعد الكولونيالية، ترجمة أحمد الروبي وآخرون، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2010، ص ص 164-165.

(3) ماكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات العربية الإسلامية نقلاً عن محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، دار الشروق، القاهرة، 2005، ص 65.

(4) يرى المفكر الجزائري مولود قاسم نايت بلقاسم (1927/1992) أن ترجمة لفظ colonisation - الذي يدل على الاحتلال والاضطهاد والهيمنة - بلفظ استعمار، هي ترجمة من الترجمات الخاطئة والشائعة، وغير المقبولة، لأنها لا تفي بالمعنى الحقيقي للفظ الأوربي colonisation. وما يؤكد ذلك، أن لفظ استعمار، في العربية - حسب نص الآية 61 من سورة هود [هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها] - يدل على عمران الأرض، والتساكن والاستقرار فيها، ولذلك قام مولود قاسم، بتعديل ترجمة colonisation إلى لفظ استعمار (من الدمار) الذي يعني الاحتلال، والاضطهاد، والهيمنة، والاستبعاد.

يتضح من هذا الموقف أن حركات الاستدمار في العصر الحديث وما خلفته من شعور بالقوة والتفوق عند الأوربيين بفضل التطور العلمي والتقني، قد جعلتهم يبالغون في تهميشهم لكل ما هو غير أوروبي إلى درجة اعتبارهم حركة التاريخ كانت في أوروبا وحدها ، ولا مجال للحديث عن التاريخ والحضارة خارج جغرافية أوروبا. و يشير إلى نفس المعنى أحد الباحثين المهتمين بالإستشراق والمركزية الأوربية فيقول: "إن الغربي أو الأوربي الأبيض، يعتقد أنه يتمتع بمزية إنسانية تمنحه الحق لا في إدارة العالم غير الأبيض فحسب، بل أيضا في امتلاكه، مجرد كون ذلك العالم تعريفا لا ينتمي للإنسانية تمام الانتماء مثلنا نحن".⁽²⁾

يمكن أن نستخلص من ذلك أن المركزية الأوربية تتأسس على تقديس كل ما هو أوروبي، وتهميش كل ما هو غير أوروبي دافعة به خارج الفلك التاريخي، الذي أصبحت أوروبا مركزه، فتاريخ أوروبا تطور في شكل خط مستقيم صاعد، وأن الروح الأوربية الغربية هي السبب وراء هذا التطور بدءا من اليونان إلى يومنا هذا.

إذن يمكن أن نستنتج أن ظاهرة التمرکز الأوربي هي ضرب من النرجسية المتشددة تؤمن بتميز وتفوق أوروبا بسبب خصائص تنفرد بها أوروبا دون غيرها، حيث هيمنت عقدة التمرکز الأوربي وكادت تمحو التنوع الإنساني، باعتبارها نوع من التفكير المتعالي الذي ينغلق على نفسه، ولا يحكم على الأشياء إلا عبر رؤيته ومقولاته ويوظف كل الحجج من أجل تأكيد صحة أفكاره.

3. مفهوم نمط الإنتاج:

ما يجب أن نعلمه أن حركة التاريخ عند ماركس لا تحكمها قوى ميتافيزيقية، كما هو الشأن عند مواطنه هيجل، بل إن التاريخ يخضع لقوانين اقتصادية، باعتبار أن الأفكار ما هي إلا انعكاس للقوانين الاقتصادية . فإذا كانت مركزية هيجل الأوربية تستند إلى أسبقية الفكرة على المادة ، فإن مركزية ماركس تنطلق من أسبقية المادة على الفكرة ، حيث أن أول عمل تاريخي للإنسان هو نشاطه المادي على خلاف هيجل الذي يحصر الوجود في الذات الواعية المفكرة . ولذلك يمثل الإنتاج وأنماطه أساس البحث في التاريخ، حيث أن منطلق البحث فيه هو الفكرة القائلة أن: " نمط الإنتاج في الحياة المادية هو شرط العمليات الاجتماعية والسياسية والروحية للحياة بوجه عام " ⁽³⁾.

يتضح من خلال هذا الرأي أن تفسير التاريخ والحضارة لا يعود إلى عالم الأفكار، بل إلى عالم الواقع والمادة انطلاقا من المبدأ الماركسي، المادة تصنع الفكر، وبذلك يكون الإنتاج هو المسؤول عن التنوعات في المجالات الاجتماعية كالعادات والتقاليد والصراع الطبقي، والسياسية كالدولة وأشكال الحكم، والروحية أي أنماط الدين وطقوسه. وفي ذات السياق يقول ماركس أن: " أساس هذا المفهوم للتاريخ يستند إلى تطور السيورة الواقعية للإنتاج، وذلك انطلاقا من الإنتاج المادي للحياة المباشرة، إنها تجعل شكل العلاقات الإنسانية مرتبطة بهذا النمط الإنتاجي، وناجما عنه أعني المجتمع البرجوازي في مختلف مراحلها، باعتباره، أساس التاريخ كله، الأمر الذي يقتضي تمثيله في عمله كدولة ، كما يقتضي أن نفس بهذا المجتمع سائر أنواع المنتجات النظرية وأشكال الوعي، الدين، الفلسفة، الأخلاق " ⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ مالك بن نبي: في مهب المعركة ، دار الفكر ، دمشق، 2002، ص16.

⁽²⁾ ادوارد سعيد : الإستشراق، ترجمة محمد عناني ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة، ط1 ، 2006، ص192.

⁽³⁾ كارل ماركس: نقد الاقتصاد السياسي ، ترجمة راشد البراوي، دار النهضة العربية، بيروت ، ج1 ، ط1، 1969، ص3.

⁽⁴⁾ كارل ماركس و فريدريك إنجلز حول الدين ، مختارات فلسفية ، ترجمة ياسين الحافظ ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 1974، ص60.

يحمل هذا النص فكرة أساسية تتمثل في أن كل أشكال البناء الفوقي⁽¹⁾ ما هو إلا انعكاس للعلاقات الإنتاجية السائدة في المجتمع، معنى ذلك أن نمط الإنتاج - وهو مصطلح يعود إلى ماركس - هو نقطة الانطلاق في تحديد التاريخ وأشكال المجتمع. على أن المقصود بنمط الإنتاج هو ذلك التداخل والترابط الكبير بين ركيزتين أساسيتين هما:

أ/ قوى الإنتاج : والتي تتمثل في مختلف وسائل الإنتاج مثل الأرض والآلات، ومختلف الوسائل التي يؤثر بها الإنسان على الطبيعة والأموال .

ب/ علاقات الإنتاج : وتتمثل في مختلف أنواع علاقات العمل، والروابط الحقوقية التي تتكون بين ملاك قوى الإنتاج من جهة، والعمال الذين يستخدمون تلك القوى بشكل مباشر، أي تمثل علاقة الناس فيما بينهم : مثل العلاقة بين السيد والعبد، أو بين ظاهري الإقطاع و العبودية، أو رجل الأعمال والأجير، وآليات تقسيم العمل وطرق التبادل والبيع والشراء.

إن تأثير نمط الإنتاج في حركية التاريخ هي فكرة طالما كررها إنجلز أيضا، حيث يقول في رسالته إلى بلوخ: "إن العنصر المحدد للتاريخ هو في آخر الأمر إنتاج وإعادة إنتاج الحياة الواقعية"⁽²⁾.

وفي ذات السياق كتب ماركس في افتتاحية البيان الشيوعي ما مفاده: " ليس تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا، سوى تاريخ صراع الطبقات فالحر والعبد، والنبييل والعامي والإقطاعي و القن ،ومعلم الحرفة والصانع، وباختصار فالظالمون والمظلومون المتعارضون دوما خاضوا صراعا لا ينتهي، صريحا تارة ومستترا تارة أخرى، صراعا كان ينتهي دائما إما بتغيير المجتمع كله تغيير ثوريا وإما باختيار كلتا الطبقتين المتصارعتين "⁽³⁾.

يمكن أن نفهم من هذا النص أن ماركس ينظر للتاريخ من زاوية العلاقات الاقتصادية بين البشر: أي علاقات الإنتاج، ولذلك جاء التاريخ برأيه معبرا عن الصراع بين الطبقات، ولذلك فهو لا يؤمن إلا بالحقائق الطبقيّة، فطرق التحصيل والمعيشة - كما يرى - هي المسؤولة عن كل التحولات الاجتماعية والسياسية والدينية.

وأما بخصوص طريقة الانتقال من نمط إنتاجي إلى آخر، فإنه يركز على التناقض بين علاقات الإنتاج وقواه، وأن جدل هذا التناقض هو الذي يحدد مجرى التاريخ، باعتباره حركة من الصراع الطبقي المتناحر الذي سينتهي حتما باختيار التشكيلة المجتمعية البرجوازية⁽⁴⁾ ليُشرق على البشرية فجر جديد يُشع نوره من مجتمع شيوعي يُلغي الاغتراب ويعيد للإنسان إنسانيته وحرته من أسر الاستغلال والحاجة⁽⁵⁾.

إن ماركس يتخذ من أوروبا عموما وإنجلترا خصوصا نقطة انطلاق لتحليله، ويقسم - انطلاقا من ذلك - التاريخ البشري إلى أربعة مراحل: المرحلة المشاعية البدائية، ثم مرحلة العبودية، ثم الإقطاعية، فالرأسمالية.

(1) مصطلح ماركسي يشير إلى الفكر والثقافة والعلم والفن والدين و الأيديولوجيا.

(2) جيزار بن سوسان، جورج لايبكا، معجم الماركسية النقدي، ترجمة جماعية، دار محمد علي للنشر، ودار الفارابي تونس، بيروت، 2003، ص1321.

(3) ماركس، إنجلز: البيان الشيوعي، ترجمة وتحقيق: العفيف الأخضر، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2015، ص ص 44-45.

(4) طبقة اجتماعية ظهرت في القرنين 15، و16 تسيطر على قوى الإنتاج وعلاقاته، وعلى مؤسسات الدولة، بما تملكه من رؤوس الأموال، وتتمثل في طبقة التجار والصناع.

(5) أنظر فؤاد خليل: الماركسية في البحث النقدي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2010، ص155.

4. مفهوم نمط الإنتاج الآسيوي وعلاقته بالمركية الأوربية:

1.4 مفهوم نمط الإنتاج الآسيوي:

إن تأثر ماركس بهيجل واضح في نظريته إلى التطور الاجتماعي عن طريق الجدال، وفي فلسفة التاريخ، حيث يؤكد على تقدم تاريخ المجتمعات بشكل جدلي، ورغم اتفاق كل من ماركس وهيجل في المنهج الجدلي إلا أنهما يختلفان في القوة المحركة للتاريخ، حيث يكون التاريخ عند هيجل تحليلاً من تجليات الروح في بحثها عن المطلق، في حين كان ماركس يرى بأن أنماط الإنتاج تختلف في تدرجها إلى المجتمع اللاتقي.

حيث أن كل نمط إنتاجي يُؤدّ تناقضات و توترات، وصراع طبقي يؤدي إلى مركب أعلى أي نمط آخر، وبالتالي فإن ماركس يأخذ عن هيجل فكرة التناقض كآلية للحركة الحضارية، غير أنه يرى بأن القوة الفاعلة هي المادة ووسائل الإنتاج. وقد تحدث ماركس - تحت تأثير هيجل والأديبات الغربية، وخاصة حركة الاشتراق - عن المجتمعات التي لا تاريخ لها وعن الشرق الراكد، وهذا ما أدى إلى ظهور بعض المصطلحات في الأدبيات الماركسية على غرار الاستبداد الشرقي ثم نمط الإنتاج الآسيوي، الذي طالما وظفه كل من ماركس وإنجلز في نقدهما لما يطلقان عليه: البربرية الآسيوية .

إن المشكلة التي صادفها ماركس وإنجلز في تصنيفهما للشعوب والمجتمعات غير الأوربية - ضمن الخط الذي رسماه، مشاعية بدائية ثم عبودية ثم إقطاعية ثم رأسمالية ثم شيوعية - وخاصة المجتمعات الآسيوية والإفريقية هو الأمر الذي جعلهما يفكران في مخرج لرأب أي صدع قد يشكك في نظريتهما، ولذلك طرحا ما يسمى بنظرية نمط الإنتاج الآسيوي، وهي نظرية خاصة بهذه المجتمعات، فقد تكلم عنها ماركس في معرض حديثه عن أشكال الاقتصاد ما قبل الرأسمالي، وتقوم هذه النظرية على فرضية انعزال هذه المجتمعات بسبب تحقيقها لاكتفاءها الذاتي أو ما يسمى باقتصاد الكفاف، ولا سيما في مجالات الزراعة والحرف، وبذلك عدم وجود التبادل، وهذا ما جعلها - برأي ماركس - مجتمعات منغلقة على نفسها، فضلاً عن عدم وجود ملكيات خاصة لأن الأرض مشاعة عامة، مثلما هو الأمر في ما يسمى بأراضي العرش في مجتمعات شمال إفريقيا، وهي عبارة عن أراضي تستغلها عدة أسر جماعياً، أو تكون ملكية الأرض تابعة لحاكم مستبد، أو ملك، وغياب الملكية الخاصة مما يعني في نظر ماركس وإنجلز غياب أي آلية لتحريك التاريخ، وهو ما يجعل هذه المجتمعات الراكدة متحجرة، والعلاقة الوحيدة الموجودة في تلك المجتمعات، هي علاقة القوة التي يأخذ بموجبها الحاكم أو الملك، الخراج من مستغلي هذه الأرض. وقد أشار ماركس إلى ذلك في رسالته إلى إنجلز بتاريخ 2 جوان 1853 مؤكداً أن مفتاح السر الشرقي هو انعدام الملكية الخاصة للأرض⁽¹⁾.

وكذلك فإن نمط الإنتاج في المجتمعات غير الأوربية ولا سيما مجتمعات الشرق تختلف اختلافاً جذرياً عما عرفت أوربا من عبودية وإقطاعية، لأن نمط الإنتاج الآسيوي يقوم على فكرة التجمعات المكتفية ذاتياً، حيث تملك السلطة المستبدة الأرض وتأخذ الدولة الضريبة أو ما يسمى بالخراج، وانطلاقاً من هذا فإن السلطة السياسية هي التي تصبح مُستغلة للإنتاج والمنتجون المباشرون عبيداً لها، بخلاف مرحلة العبودية في نمط الإنتاج الأوربي الذين يكونون عبيداً لفرد واحد، وانطلاقاً من هذا لم تعرف آسيا الملكيات الخاصة، وتتجسد الدولة في شخص ملك أو خليفة أو حاكم مستبد. وإذا كان نمط الإنتاج الأوربي في مرحلة العبيد والإقطاع يوجد

(1) أنظر بن سوسان و لايبكا: معجم الماركسية النقدي، مرجع سابق، ص 1324.

فيه نوع من النضال والاتفاق المشترك لمواجهة استبداد الإقطاعي والسيد، فهذا غير موجود في نمط الإنتاج الشرقي الذي يتميز بالتصلب، ولنتأمل هذا النص الذي يقول: "هكذا هو الحال منذ زمن المملكة الأشورية والمملكة الفارسية، إن المرزبان أي الباشا يجسد الشكل الشرقي للاستثمار مثلما يجسد التاجر والحقوقي الشكل الغربي المعاصر للاستثمار"⁽¹⁾.

يتضح من خلال هذا الرأي تداخل الاستبداد السياسي مع الحياة الاقتصادية، حيث يكون المستبد الشرقي هو السياسي و المستثمر في نفس الوقت.

ويعتقد أنصار نظرية نمط الإنتاج الآسيوي، بأن بيع قوة العمل والإنتاج من أجل السوق لم تُعرف تاريخياً إلا في غرب أوروبا، ومنها انتقلت إلى باقي بلدان العالم، وبذلك نفوا الرأسمالية عن العالم غير الأوربي، وجعلوا النشاط الاقتصادي في العالم غير الأوربي بدائي⁽²⁾.

قد يتساءل البعض كيف يهاجم ماركس الرأسمالية ويعتبرها تحمل في طياتها بذور فنائها، وفي نفس الوقت يعتبرها مرحلة متطورة في سلم النمو الاقتصادي، ليحاول - حسبما يبدو - مركزها في أوروبا، وهذا ما عبر عنه أحد الباحثين بقوله: "صحيح أنه أنزل بالرأسمالية وشروطها أحكام الإدانة، وأمل في سقوطها، وقيام نظام الاشتراكية، لكنه ظل يعتقد أنها محطة تاريخية، خطت بالحضارة عن طريق التقدم والرفق"⁽³⁾.

مما يؤكد أن الرأسمالية بكل سلباتها هي خطوة حتمية نحو التحضر، وهذا ما لم تعرفه المجتمعات الآسيوية، فماركس بهذا يكرس فكرة تفوق الغرب.

2.4 أسس ومميزات نظرية نمط الإنتاج الآسيوي:

كانت نظرية نمط الإنتاج الآسيوي في جوهرها أحد تطبيقات المركزية الأوربية عند ماركس وإنجلز، وتتميز هذه النظرية بعدة خصائص، أهمها:

أ- الاعتقاد بأن الرأسمالية وما يميزها من بيع لقوة العمل والإنتاج من أجل السوق، لم تظهر إلا في أوروبا، وهذا ما جعل ماركس يفكر في نمط اقتصادي مخالف في المجتمعات غير الأوربية، فقام بنفي الرأسمالية عن عوالم الشرق.

ويرتكز هذا الشكل بالخصوص، على الملكية الجماعية أو القبيلة، أما مجموعة الوحدات الصغيرة، فتهيمن عليها وحدة تستحوذ على فائض عمل أعضائها - برأي ماركس - ويمكن وجود هذا الشكل المتناقض في الشرق، والمكسيك و البيرو، وهو يمزج بين الهيكل الجماعي وعلاقة الاستغلال، أما انحلاله فيمثل سيورة عقدة تتطلب تدخل عوامل خارجية (احتلال)⁽⁴⁾. من ذلك مثلاً قيام المحتل الفرنسي في الجزائر بتشتيت أهالي أراضي العرش بكل الوسائل، لنهب تلك الأراضي توزيعها على المستوطنين (الكولون) بالضبط، كما تفعل إسرائيل - تقريباً - منذ احتلالها لفلسطين عام 1948، بالأراضي الفلسطينية لتوزيعها على المستوطنين الإسرائيليين.

ب- استغلال الدولة لنمط الإنتاج:

⁽¹⁾ كارل ماركس و فريدريك إنجلز: في الاستعمار، دار التقدم، موسكو، 1971، ص 192.

⁽²⁾ أنظر محمد عادل زكي: نقد الاقتصاد السياسي، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط 6، 2019، ص 325.

⁽³⁾ عبد الإله بلقزيز: نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2017، ص 235.

⁽⁴⁾ أنظر بن سوسان و لايكا: معجم الماركسية النقدي، مرجع سابق، ص 1324-1325.

طالما أن الأرض - في نمط الإنتاج الآسيوي - ملكية عامة، تتحكم فيها الدولة، يفترض أن لا يكون في هذا النمط أي نوع من أنواع الاستغلال، إلا أن الواقع - حسب ماركس - خلاف ذلك، إذ تتحول الدولة في هذا النمط الإنتاجي إلى أكبر مُستغل، الأمر الذي يُصعب تصنيف نمط الإنتاج الآسيوي ضمن المراحل الاجتماعية والاقتصادية التي عرفتتها البشرية حسب ماركس (مشاعية، وإقطاعية، ورأسمالية)، وهو الأمر الذي عبّر أحد المفكرين قائلًا: " يُلاحظ ماركس أن نمط الإنتاج الآسيوي الذي هو أحد أشكال الانتقال من المجتمع اللاتقني إلى المجتمع الطبقي، يتميز بطابع مزدوج، فبالرغم من أن الملكية تظل مشاعية تتجلى فيه أشكال نوعية من استغلال الإنسان للإنسان، ودولة مستبدة، ونمط الإنتاج هذا لا يمكن إرجاعه لا إلى المشاعية البدائية، ولا إلى نظام العبودية، ولا إلى نظام الإقطاع، ولقد تطور في العديد من المجتمعات الآسيوية والإفريقية، والأمريكية قبل اكتشاف كولومبس لها"⁽¹⁾.

نستنتج من خلال ذلك عدم وجود مُلاك أراضي خواص، فالمنتجون المباشرون يكونون تابعين للدولة مباشرة باعتبارها مالكا للأرض، فهي المستغل الوحيد، والحاكم السياسي في نفس الوقت، فيكون هناك اتحاد بين الربيع والضريبة، وبذلك فإن الدولة أو المشاعة الكبرى، هي التي تستولي على الإنتاج الفاض في ظل غياب الملكيات الخاصة وغياب الطبقات، وبالتالي فإن الصراع الطبقي، وأي نوع آخر من الاستغلال، مستقل عن سلطة الدولة، فضلا عن عدم تدني مستوى تقسيم وتنظيم العمل. وفي هذا الإطار: "يذهب ماركس إلى أن المنتجين المباشرين لا يواجهون مالكا عقاريا خاصا (فردا)، بل كما في آسيا، يكونون خاضعين لعبودية أو تبعية مباشرة للدولة التي تقف فوقهم، باعتبارها مالك الأرض وحاكمهم الأعلى في نفس الوقت، وهنا يتطابق الربيع مع الضريبة، ولا توجد حاجة لضغط سياسي، أو اقتصادي أشد وطأة مما هو مشترك بين كل أنواع الخضوع للدولة"⁽²⁾.

يبدو من خلال هذا الرأي، أن نظرية نمط الإنتاج الآسيوي تُخطئ بين الحياة السياسية والاقتصادية، وتفتقر إلى الدقة وإلى القاعدة التاريخية الصحيحة، وذلك سعيا منها لحصر الرأسمالية في الغرب، وحتى من رفض نظرية نمط الإنتاج الآسيوي من الماركسيين كان رفضهم لها انطلاقا من اعتقادهم بخط التقدم الغربي - مشاعية عبودية إقطاعية⁽³⁾ - واعتباره نموذجاً لكل الشعوب وهو وجه أكثر مركزية أوربية في اعتقادنا، فضلا عن ضرورة المرور الحتمي لجميع المجتمعات بالرأسمالية.

وهكذا فإن الرافضين لنمط الإنتاج الآسيوي اعتبروه محض أشكال نوعية متميزة داخل نفس الأنماط الثلاثة التي عرفتتها أوربا خاصة نمط الإنتاج العبودي والإقطاعي، بحيث تصبح كل أنماط الإنتاج الشرقية حالة أو نوعاً آخر من نمط الإنتاج العبودي، بما أن نمط الإنتاج المنتشر في التاريخ الوسيط لا يصبح نمطاً آسيوياً بل هو نمط إنتاج إقطاعي، وبالتالي فقد كانت أوربا وأشكال نظمها الاقتصادية، هي مؤشر التعرف إلى نوع نمط الإنتاج في أي مجتمع.⁽⁴⁾

(1) روجيه غارودي : كارل ماركس، ترجمة جورج طرايشي، منشورات دار الآداب، بيروت، ط1، 1970، ص97.

(2) إبراهيم فتحي : الماركسية وأزمة المنهج، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ط1، 1992، ص77.

(3) يؤمن الماركسيون بضرورة المرور الحتمي لكل المجتمع على المراحل التي مرت عليها أوربا بدءاً بالمرحلة المشاعية ثم العبودية ثم الإقطاعية، فالرأسمالية وانتهاء بالشيوعية.

(4) أنظر، عادل زكي : نقد الاقتصاد السياسي، مرجع سابق، ص325.

إن تصنيف المجتمعات في تقدمها عبر خط العبودية والإقطاع والرأسمالية، هو تصنيف ينطلق من مركزية أوربية واضحة، باعتبار أن الكثير من المناطق في العالم لم تعرف هذا التقسيم، سواء في الشرق القديم، أو في العالم الإسلامي الوسيط، أو في تاريخ شعوب أمريكا اللاتينية، ولذلك فهذا التقسيم يلغي الخصوصيات المحلية لهذه الشعوب.

ج - يبدو أن المجتمعات الشرقية تخضع للاستبداد السياسي وغياب الملكيات الخاصة - برأي ماركس - وبالتالي فإن الجهد ينحصر في ضمان العيش، ولا يتجه ذلك الجهد نحو إنتاج الوفرة، وهذا هو سبب الجمود والتصلب الذي يميزها، فهي مجتمعات مازالت في فجر التاريخ أو على أعتابه ومن غير الممكن أن تدخل التاريخ دون المرور من باب الغرب وأساليب عيشه، ومن غير الممكن لها ذلك إلا بحركة عنيفة تحطم الهياكل القديمة بوصفها موانع أو معوقات أمام حركة التاريخ.⁽¹⁾

د - إن طريق تخلص آسيا من تشكل المعوقات التي تحول بينها وبين التقدم - حسب ماركس - هو الرأسمالية ذاتها (الاحتلال) باعتبارها تشكل مجتمعات متكلسة لا توجد فيها حركية ولا تبادلات، حيث أن الأرض تابعة للدولة أو الجماعة، والتبادل بين الطبقات غير موجود، ومن ثم فتلك المجتمعات هي عبارة عن قوى مكتفية ذاتياً، والصراع الطبقي منعدم، ولهذا لا بد لها من هزة ترجعها إلى سكة التقدم.

وتؤكد النظرة الماركسية - وحتى الهيكلية - أن المجتمعات الإسلامية، على سبيل المثال، تُعتبر مجتمعات ساكنة بسبب الحكم الاستبدادي، ولنلمس هنا تأثير ماركس بهيجل، فاقتصاد الكفاف وعدم وجود ملكيات برأي ماركس هو ما يعرقل الشرقيين على التقدم، وهو ما يتركهم منقسمين، وفي هذا المناخ يزدهر الاستبداد الذي يحرص المستبد على بقاءه.

وهكذا يبدو أن ماركس لا يجد حرجاً في أن يُحمل نفسه المسؤولية عن شيوع هاته النظرة (ركود الشرقيين بسبب نمط إنتاجهم) التي تناولها في كتابه "أسس نقد الاقتصاد السياسي" عند حديثه عن إيران، مما يفسر غياب التاريخ والمبادرة الرأسمالية عند المجتمعات الشرقية.⁽²⁾

5. صور من المركزية الأوربية عند ماركس وإنجلز:

تظهر المركزية الأوربية عند ماركس وإنجلز على مستويين:

1.5 على المستوى المعرفي (النظري)

إن كتابات ماركس وإنجلز حول المجتمعات غير الأوربية تُشكل إخراجاً لكل التيارات الاشتراكية و اليسارية، لأن تلك الكتابات تقدم تبريراً للاستعمار الأوربي، لأنها ترى بأن مجتمعات الشرق عاجزة عن توفير الأطر التاريخية لبلوغ الرأسمالية بنفسها، وهذا ما يُحتم أن تُفرض عليها تلك الأطر من الخارج. وهذا ما جعل أحد المفكرين المهتمين بالإشتراكية يصدر الحكم التالي: "كان ما حققه المستشرقون الأوائل، وما استغله الذين لم يكونوا مستشرقين في الغرب، نموذجاً مصغراً للشرق ملائماً للثقافة السائدة الطاغية وتفسيراتها النظرية"⁽³⁾

⁽¹⁾ أنظر، سالم يفوت: حفريات الاشتراكية، في نقد العقل الاشتراكي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1989، ص56.

⁽²⁾ نفسه، ص60.

⁽³⁾ مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ ماركس في اشتراكية إدوارد سعيد، دار الفارابي، بيروت، ط4، 2018، ص7.

يتضح من هذا أن الماركسية قد تأثرت بالثقافة السائدة في أوروبا، فوجدت نفسها في دائرة المركزية الأوروبية، فليس من السهل أن يناقش الباحث بنفسه عن ضغوط ثقافته وخصائص التقاليد البحثية السائدة في مجتمعه. وهو الأمر الذي جعل الكثير من الباحثين يصنفون ماركس ضمن المفكرين الذين تأثروا بالمركزية الأوروبية، ونلمس هذا التأثير في عدة صور، منها:

أ- الجدل الماركسي الذي بني على تصورات ملوثة بعقدة التمرکز الأوربي، حيث أن أصوله المعرفية تعتبر أوروبا مثالا يجب تعميمه على كل العالم، فالاعتقاد بخط أحادي للتاريخ، هو الخط الأوربي، يدل دلالة قاطعة على تأثر قائله بنزعة التمرکز الأوربي، حيث لم تكن فلسفة ماركس إلا تجليا من تجليات أوربيته، فالمجتمعات خارج أوروبا لم تبلغ أدنى عتبات تفكيره باعتبارها أنماط بدائية من الحياة لا تدخل ضمن نسقه الفلسفي.

ب- هذا وتظهر مركزية ماركس الأوروبية انطلاقا من منظوره للاقتصاد السياسي، وملكية رأس المال وأساليب الإنتاج ووسائله، وكل من لا يتماهى مع هذا التصور الماركسي يعد خارج التاريخ برأيه.

ج- كما تُعبر مركزية ماركس عن نفسها تحديدا في الأطروحة الشهيرة عن نط الإنتاج الآسيوي⁽¹⁾ مما جعل أحد المفكرين الغربيين يؤكد بأن: "نصوص ماركس وانجلز حول ما يدعى اليوم العالم الثالث مشبعة بالفعل بصور نمطية صنعها المستشرقون الفرنسيون من هير بلوت إلى فولبي، وبالاعتقاد الرومانسي بالفضائل الكونية للتحديث والتقدم"⁽²⁾.

وقد كتب ماركس في كتابه "شهر برومير الثامن عشر ولويس بونابرت" عن الشرقيين مؤكدا: "أنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولا بد أن يمثلهم أحد"⁽³⁾.

إن هذا النص يعكس إيديولوجية تبريرية مغرورة تحجر على الآخرين، أبسط حقوقهم وتنصب نفسها في مقام الوصي عن المجتمعات الشرقية، فكيف يعقل أن يكون ماركس الفيلسوف الإنساني العظيم في خدمة الامبريالية والاحتلال الأوربي للبلدان الأفريقية والآسيوية؟!، أليس هذا انزلاق ماركسي في المركزية الأوروبية؟.

د- لقد جعل ماركس أوروبا مقياسا عالميا يتجاوز الزمان والمكان والجغرافيا، فأنكر تحت تأثير هيغل والاستشراق تواريخ المجتمعات غير الأوروبية، وفاء منه لخط التقدم الغربي.

فقد اعتبر كل من ماركس وانجلز التاريخ مجرد حقبة متتابعة تسري بنفس الطريقة على كل المجتمعات، وهما في ذلك لا يختلفان عن أوجست كونت أو أي مفكر رأسمالي غربي، حينما تكلموا عن مرحلة العبودية، ثم الإقطاع ثم الرأسمالية، ثم الاشتراكية ثم الشيوعية، فهذه المتتالية التاريخية يبدو أنها عالمية وحتمية، برأيهما⁽⁴⁾.

(1) وهي الأطروحة التي ترى بانعزال المجتمعات الآسيوية وغير الأوروبية عموما، بسبب اعتمادها على اقتصاد الكفاف (الاكتفاء الذاتي) وهو ما أدى إلى غياب كل أشكال التبادل، والصراع الطبقي، والملكيات الخاصة، الأمر الذي جعلها - حسب ماركس وانجلز - مجتمعات ساكنة راكدة.

(2) خوان غوتيسولو: الاستشراق الإسباني، ترجمة كاظم جهاد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د، ت) ص 145.

(3) ادوارد سعيد: الاستشراق، مرجع سابق، ص 70.

(4) أنظر عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 1، 2006، ص 238.

هـ- كما تتجلى بوضوح بعض تحليلات المركزية الأوربية من خلال عدم إدانة ماركس للاسترقاق و تجارة العبيد، بل بالعكس فقد كان ماركس وإنجلز يؤكدان على الدور الكبير الذي على العبيد أن يلعبوه لتحقيق النهضة الاقتصادية للغرب، فماركس لا يجد غضاضة في أن يصرح بأن: "العبودية مقولة اقتصادية ذات أهمية بالغة"⁽¹⁾.

يؤكد هذا النص الماركسي أن العبودية منبع للتطور الاقتصادي والسياسي، لذلك حاول بمعية صديقه إنجلز تسويقها تسويقا اقتصاديا علميا، كما أنهما لا يرفضان البتة نظرية تفوق الجنس الأبيض، وكلاهما عن الأجناس المتحضرة ونصف المتحضرة، والأجناس غير المتحضرة يدل على اعتقادهما بتمايز الأجناس. ففي كتاب إنجلز "أصل العائلة" نستشف بعض وجوه التمرکز العرقي الغربي، حيث يعتبر إنجلز الألمان جنسا أريا عديد المواهب، إذ يعمل على تسويق هذا التفوق تسويقا علميا حتى أنه ربطه بكثرة تناولهم للحوم والألبان.

و- كذلك يمكن أن نلمس بعض ملامح المركزية الأوربية من خلال تأكيد ماركس بركود التشكيلات الاجتماعية للعالم الشرقي، وأن الرأسمالية هي الوحيدة التي تستطيع تحريك هذا الركود، وبهذا يمكن أن نستنتج أن كل خطاب ماركسي يحمل بين ثناياه إرادة في الهيمنة والقوة، فالرأسمالية مرحلة متقدمة في سلسلة التطور التراتبي للحقب التاريخية، ولذلك فإن للاستعمار برأيه، انعكاسات إيجابية، تتمثل في الإطاحة بالنظم الاجتماعية القديمة، إضافة إلى بث نوع من الحركية في اقتصاديات الشعوب الآسيوية، بانتشالها من حالة الاقتصاد المعيشي وما يترتب عنه على الصعيد السياسي والاجتماعي، فنمط الإنتاج الآسيوي إذن، في حاجة إلى قوة خارجية رأسمالية تحطمه وتدججه في خط التقدم الغربي، ومسار التاريخ الأوربي.

ز- ومهما يكن من أمر، فإن ماركس وإنجلز قد أعطيا أوربا مكانة مركزية في تاريخ البشرية، فكانا يُلحان على ضرورة "أوربة" بلدان الشرق، فأوربا ترادف التحضر والتصنيع، وتوسعها في أنحاء العالم الشرقي هو الأداة الأساسية للتحديث، وبتالي فالاستعمار هو الثمن الذي يجب أن تتحمله شعوب الشرق لدخول التاريخ.

لقد اتخذ ماركس من أوربا بوجه عام، ومن إنجلز بوجه خاص، حقلا للتحليل، وينطلق في أبحاثه من مبدأ تقسيم تاريخ العالم (وهو تقسيم يعتمد على نظرية في نمط الإنتاج إلى المراحل المعروفة: (المرشاعية والعبودية والإقطاع و الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية).

ح- يبدو أن المشكلة الأساسية في التفكير الماركسي هي أن الذين أرادوا تبرئة ماركس من المركزية الأوربية قد أغرقوه فيها أكثر، وهو ما عبر عنه أحد المفكرين الماركسيين قائلا :

"فالنتيجة هي أنه لدينا اليوم تأويلان اثنان ماركسيان ظاهريا، كلاهما يتسم بالتشوه الأوربي، أولهما قائم على نظرية الطريقتين، الطريق الغربي المفتوح الذي تجسد في التابع (عبودية، إقطاعية، رأسمالية)، والطريق الآسيوي الذي جمّد التطور عند مستوى سابق على الرأسمالية، وثانيهما قائم على النظرية المضادة ظاهريا التي تقر بالطابع العمومي للتسلسل (عبودية، إقطاعية)، على أن التعميم المقترح هنا تم بقرار مسبق مفاده أن جميع المجتمعات، لا بد أن تكون قد مرت بهذه المراحل، ولو أن جميع الأدلة التاريخية تدل على أن الأمر ليس كذلك"⁽²⁾.

(1) كارل ماركس: يؤس الفلسفة، ترجمة محمد مستجير، دار التنوير، ودار الفارابي، بيروت، ط4، 2010، ص168.

(2) سمير أمين: التمرکز الأوربي، مرجع سابق، ص134-135.

يظهر من خلال هذا النص أن كل المحاولات التي قامت بها الماركسية لفهم وتأويل التراث الماركسي كانت مخرجاتها تصنيف ماركس ضمن المركزية الأوروبية، وما يجب أن نؤكد عليه هو أننا نعني بالماركسية كل التأويلات والتفسيرات المقدمة لماركس، وهو ما يحيل إلى القول بأن هناك فرق بين الماركسية وفلسفة ماركس، وبذلك انقسمت الاتجاهات الماركسية في ما يخص نمط الإنتاج إلى قسمين : الاتجاه الأول: يؤكد على وجود نمطين اقتصاديين: أوربي و آسيوي، وتظهر مركزيته في حصر قوانين الرأسمال في أوروبا ونفيها عن المجتمعات خارج أوروبا. والاتجاه الثاني: يرى بأن خط التقدم الوحيد هو خط التقدم الأوربي، ومراحله الحتمية. على أن هذين الاتجاهين يلغيان الطابع العالمي والإنساني للماركسية.

2.5 على المستوى العملي (التطبيقي):

سنورد تحت هذا العنوان بعض النماذج الواقعية، التي يمكن أن نلتمس فيها بعض صور المركزية الأوروبية، عند كل من ماركس وإنجلز:

1.2.5 نموذج الجزائر:

يتكلم ماركس وإنجلز عن سكان الجزائر بنوع من الاستعلاء، فيصفان السكان المحليين بأبشع الأوصاف، مثل: أنهم لا يستحقون الاحترام، وقسوتهم الزائدة، ومستواهم الأخلاقي المنخفض جدا، والانحطاط إلى الدرك الأسفل في عدة نواحي. ولذلك كان ماركس وإنجلز يؤكدان بأن مهمة نقل الحضارة، هي مهمة أوربية بامتياز، إضافة إلى أن الاستعمار الأوربي هو الذي بإمكانه إحداث الثورة المنتظمة، ولذلك لم ينج من عقدة التمرکز الأوربي حتى أولئك المفكرون الذين طالما اعتبروا مفكرين إنسانيين عالميين، فكان منظارهم للشرق هو عيون المستشرقين التي صورت لهم عالم شرقي ثابت وجامد. ولكي نطلع على مكن الإحراج يكفي أن نطلع على بعض النصوص لكل من ماركس وإنجلز، نتحدث عن العالم الشرقي، ولنتأمل هذا النص لإنجلز الذي جاء في مقال له عن الأمير عبد القادر في سنة 1848 وهو نفسه العام الذي صدر فيه البيان الشيوعي يقول فيه : "إن من حسن التوفيق الكبير أن يكون الزعيم العربي قد أُسر، فقد كان صراع البدو بلا أمل، وعلى الرغم من الكيفية التي أدار بها الحرب جنود أفضاظ من أمثال بوجو تستأهل الإدانة الشديدة، فإن فتح الجزائر واقعة مهمة وموامة لتقدم الحضارة، وما كانت قرصنة الدول البربرية لتتوقف إلا بفتح تلك الدول ، ولقد كان فتح الجزائر قد أرغم بايات تونس وطرابلس وكذلك إمبراطور مراكش على الانخراط في طريق الحضارة، فقد اضطروا إلى البحث عن شواغل أخرى لشعوبهم غير القرصنة... وإذا كان من الممكن أن نأسف على ما أصاب الحرية من دمار، فلا يجوز أن ننسى أن أولئك البدو أنفسهم هم شعب من اللصوص وسائلهم الرئيسية للعيش هي غزو بعضهم بعضا، أو غزو القرويين الحضر، ناهيين ما يجدونه، ومُعَمِّلِينَ يد التقتيل في كل من يقاوم وبائعين باقي الأسرى كعبيد"⁽¹⁾.

نستخلص من النص - رغم طوله - إن إنجلز يرى أن فشل مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري، مسألة مهمة لأنها مقاومة تمثل انعكاسا لمجتمع وعقلية بدوية، وبالتالي، لا نتائج مرجوة منها سوى تقديم المزيد من الضحايا، في مواجهة قوة الفرنسيين وهمجيتهم المبالغ فيها ، فاستسلام الأمير عبد القادر شيء يبعث السرور، لأن مقاومة من سماهم بالبدو هي مقاومة بدون جدوى، واحتلال الجزائر أمر هام ونافع لرقى الحضارة، حيث كان إنجلز يعتقد بضرورة القضاء على القرصنة في البحر الأبيض المتوسط ، وذلك يمر

(1) ماركس و إنجلز :الماركسية والجزائر، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة ،بيروت، ط1، 1978، ص14 .

حتما بإزالة الحكومات البربرية في شمال إفريقيا التي تُمول خزائنها من قرصنة السفن الأوربية ، فقد كان إنجلترا يصف السكان بالبدو ويعتبرهم قطاع طرق لا بد من تأديبهم، ولم يكن في ذلك يختلف عن السياسيين الغربيين والقادة العسكريين آنذاك. مع العلم أن القرصنة⁽¹⁾ كانت ظاهرة عامة منتشرة في حوض البحر المتوسط ، ولم تكن حكرا على سكان شمال إفريقيا ولم تكن لتتوقف حتى باحتلال هذه الشعوب. وما يجب أن نشير إليه هو أن ماركس وإنجلترا يرتبطان في أذهان الناس بنصرة الشعوب المضطهدة ونصرة حركات تحرر الشعوب، وضد كل أشكال الظلم، وعدوان لدودان للاستعمار وشروبه. والواقع أن حقل رؤية ماركس وإنجلترا كان أوربيا محضا .

في هذا المعنى يُعلق أحد الباحثين على النص السابق، بأن إنجلترا رد ثورة الأمير عبد القادر على المستعمر الفرنسي إلى كونها صراعا يائسا للحالة البربرية للمجتمع، مرحبا بالغزو الفرنسي للجزائر الذي اعتبره حقيقة هامة وسعيدة في تقدم الحضارة، ويعتمد تفسير إنجلترا على فرضيتين أساسيتين:

الأولى :هي ركود التشكيلات الاجتماعية للعالم الشرقي ، وأن الرأسمالية تستطيع بالتالي أن تلعب دورا تاريخيا في تحقيق أنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية التي تسود تلك التشكيلات. والثانية: هي أن الأمم الصغيرة أو ثورات الأقليات لا تساهم في تطور الرأسمالية كنظام علاقات اقتصادية عالمية⁽²⁾. ولنتأمل هذا النص لإنجلترا الذي يقول فيه: "إن جميع شعوب البربر الأحرار هؤلاء يبدون للناظر من بعيد في غاية العزة والنبل والبهاء، ولكن ما عليك إلا أن تقترب منهم حتى تكتشف أن الشره إلى الكسب هو دافعهم ومحركهم مثلهم مثل الأمم الأكثر تحضرا ، كل ما في الأمر أنهم يلجؤون إلى وسائل أكثر فجاجة وفظاظة... إن البرجوازي المعاصر مع الحضارة والصناعة والنظام والأنوار التي يحملها معه على كل حال، لأفضل من المولى الإقطاعي أو اللص قاطع الطريق، ومن الطور المهمجي من المجتمع الذي ينتمي إليه"⁽³⁾.

يمكن الملاحظة في هذا الصدد أن الأحكام التعميمية التي يطلقها إنجلترا ضد السكان المحليين، والتهم الجاهزة التي يرميهم بها، ورغم ذلك التشابه الذي يقر به إنجلترا بين الثري الأوربي، وما يسميه اللص قاطع الطريق إلا أنه في النهاية يفضل المحتل الأوربي الناهب، وما يحمله من أنوار مزعومة وتفوق إنتاجي على وضعية اجتماعية يسيطر فيها المولى الإقطاعي أو البدوي الناهب.

⁽¹⁾ يطلق مصطلح القرصنة على السرقة التي تقع في البحر، وقد انتشرت القرصنة في البحار وقرب المضائق، واستفحلت بشكل خاص في البحر المتوسط ، وتبادل المسلمون والمسيحيون التهم بالقرصنة، لكن إنجلترا أشار فقط إلى القرصنة التي كان يقوم بها المسلمون في البحر المتوسط، متجاهلا القرصنة التي كان يقوم بها قراصنة بإيعاز من الكنيسة، على غرار فرسان الإسبتارية ، أو ما تعرف باسم فرسان القديس يوحنا الأورشليمي، والتي انبثقت عن الجماعة الأم الكبيرة والمشهورة باسم فرسان المعبد، الذين بدؤوا أول الأمر من جزيرة رودس، ثم مالطا بدءا من عام 1530، وقد كانوا دائمي الإغارة على سواحل المسلمين خاصة سواحل ليبيا وتونس، ويذكر المؤرخون أن الحسن الوزان (1488/1554) الذي يُعرف بليون الإفريقي، تعرض للاختطاف في إحدى هذه الحملات على جزيرة جربة، لينتهي به الأمر في روما ، حيث عينه رجال الدين معلما للغة العربية والجغرافيا، وقد تمكن من العودة إلى تونس بمساعدة تلميذ له يسمى هانز. وهذا ما يدل على أن القرصنة لم تكن من خاصية الدول الإسلامية فقط، بل الكنيسة أيضا، لها قراصنتها حتى أواسط القرن التاسع عشر. أنظر ويكيبيديا، الموسوعة الحرة على الانترنت.

⁽²⁾ أنظر سالم يفوت :حفريات الإستشراق، مرجع سابق، ص 51.

⁽³⁾ ماركس و إنجلترا : الماركسية والجزائر، مصدر سابق، ص ص 14-15.

هذا ولا توجد في رسائل ماركس إدانة صريحة للاستعمار، فقد زار الجزائر في مرحلة ما بعد ثورتين في فرنسا وبعد القضاء على ثوري الأمير عبد القادر وبوعمامة في الجزائر، أي في زمن بدا وأن لا شيء سيزعزع الاستيطان الأوربي والمشروع الاستعماري الذي كان في أوج ازدهاره⁽¹⁾.

وقد قام الاحتلال بتفتيت أراضي العرش عن طريق استصدار عدة قوانين أهمها قانون فارني 1873 الذي أدخل الملكية الفردية للأرض، وهو الأمر الذي لاقى استحسانا من طرف ماركس وإنجلز، واعتبرا ذلك عملا ايجابيا، لأنه سيدخل الرأسمالية للمجتمع الجزائري، وهي فترة ضرورية للحركة التاريخية، رغم أن الهدف الحقيقي من تقسيم هذه الأراضي هو نزاعها من الجزائريين، وتفتيت المجتمع الذي كانت ملكية الأرض الجماعية تجعله متضامنا في مواجهة الاستعمار دفاعا عن أرضهم المشتركة، رغم أن أرض العرش هي ملكية عامة جماعية، والملكية الجماعية هدف تسعى إليه الماركسية.

والأدهى من ذلك أن إنجلز في مقاله الثاني عن غزو الجزائر كان يدعو إلى تنظيم الجيش الإنجليزي في الهند كما نظمت فرنسا جيشها في الجزائر، حيث أشار إلى تجهيز الجيش الفرنسي ببنادق حديثة، بعيدة المدى في إصابة أهدافها، وتمتاز بالدقة في التصويب مع تشكيل فرقة عربية تسمى "بالزواف" لمحاربة العرب⁽²⁾.

وبفضل هذه الطريقة انتصر الجيش الفرنسي، وكان إنجلز يتمنى أن تفعل إنجلترا مثلما فعلت فرنسا في الجزائر، وتظهر هنا مركزية أوربية صارخة. فأنجلز يتحدث بوصفه أوربيا، خاصة أنه كان مراسلا لصحيفة دي نورثن ستار (نجمة الشمال) لسان حال الطبقة العاملة في بريطانيا آنذاك، أي أن مقالاته كانت موجهة إلى جمهور غربي، لذلك فهو يبحث عن مبررات الاحتلال، عندما يتحدث عن معاناة الأسرى المسيحيين في الجزائر، ولكنه في المقابل لم يتكلم عن معاناة الأسرى المسلمين في السجون الأوربية⁽³⁾.

2.2.5 نموذج الهند:

تظهر مركزية ماركس وإنجلز الأوربية بجلاء عند حديثهما عن المجتمع الهندي، ويُعدّ موقفهما مشابه للموقف الذي اتخذته قبلهما هيجل، وهو موقف حملته مؤلفات ماركس وإنجلز التي تكلمتا فيها عن مجتمعات الشرق، مثل كتابهما المشترك الذي عنوانه "في الاستعمار"، أو في حديثهما عن أشكال الإنتاج في المجتمعات ما قبل الرأسمالية، أو في بعض المقالات الصحفية ومن بين النصوص المدللة على ذلك قول ماركس: "وحيث استثارت إنجلترا ثورة اجتماعية في هندوستان⁽⁴⁾ استرشدت والحق يقال بأخس الأهداف ودلت على غباوتها في تلك الأساليب التي سعت بها إلى تحقيق هذه الأهداف، ولكن المسألة لا تقوم هنا، بل تقوم في معرفة ما إذا كان باستطاعة الإنسانية أن تؤدي رسالتها دون ثورة جذرية في ظروف آسيا الاجتماعية، ففي حال النفي كانت إنجلترا رغم جميع جرائمها أداة غير واعية في يد التاريخ، حيث استثارت هذه الثورة، وفي هذه الحال يحق لنا من وجهة نظر التاريخ مهما كان مشهد تدمير العالم القديم مؤلما لمشاعرنا الخاصة"⁽⁵⁾.

(1) عبد العزيز بوباكير: مورييسكي في الجزائر، رحلة كارل ماركس إلى الجزائر، دار ميم للنشر، الجزائر، 2019، ص 21.

(2) ماركس، و إنجلز: الماركسية والجزائر، مصدر سابق، ص 46-47.

(3) أنظر، تعليق جورج طرايشي، في الماركسية والجزائر، مرجع سابق، ص 23-24.

(4) هندوستان: أو بلاد الهند والسند وهو اسم كان يطلق على شبه القارة الهندية بدولها وشعوبها قديما وحديثا.

(5) ماركس و إنجلز: في الاستعمار، مصدر سابق، ص 31.

يبدو من خلال هذا الرأي، أن ماركس يُقر بأن الاحتلال الإنجليزي للهند لم يكن دافعه الأساسي سوى النهب والتوسع، وخدمة المصالح الاقتصادية للتاج البريطاني، ولكن انطلاقاً من مبدأ "رُب ضارة نافعة"، فإن الاحتلال الإنجليزي بقدر ما خدم مصالحه في الهند، قدّم خدمة جلييلة للمجتمع الهندي، الذي يصفه ماركس بالجمود والتحجر، من خلال اختراق ذلك السكون و بث روح الحياة والحركة في ذلك المجتمع الخامل، ولا توجد حسب ماركس أداة لفعل ذلك، أفضل من الغزو الخارجي، بعد عجز العوامل الداخلية عن إيقاظ هذا المجتمع، وانطلاقاً من ذلك يُقر ماركس بأن الاحتلال الإنجليزي للهند وغيرها من مجتمعات الشرق، - وهذا ينسحب عن كل الاحتلال الأوربي للشعوب غير الأوروبية - عمل مشروع ومسوغ، طالما أنه الأداة غير الواعية للتاريخ لإدخال هذا المجتمع في التاريخ، انطلاقاً من المبدأ الغربي: "الغاية تبرر الوسيلة"، فكل جرائم الاحتلال - فيما يرى ماركس - مبررة في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود، ولا بد أن يمر ذلك حتماً بتحطيم كل البنى الثقافية والاقتصادية والاجتماعية للهند .

إن الملاحظ هنا، أن ماركس شأنه شأن أستاذه هيجل يُطوع الواقع خدمة للفكر، فهو يختزل الحقائق التاريخية من أجل أن تتفق مع نسقه الفكري، وفاء لتقاليد فلسفة التاريخ الغربية التي تقول بغائية التاريخ، وبالتالي يمكن تسويق أي فعل يخدم تلك الغائية.

على أن ماركس بهذا الرأي يبدو وكأنه يدعو إلى الحجر على المجتمعات الشرقية باعتبارها مجتمعات لم تبلغ سن الرشد بعد، فهي لا تعرف مصالحها، وعاجزة عن تلّمس طريق الحضارة، وهي تحتاج إلى مرشد أوربي ليضعها على سكة التاريخ والحضارة.

يظهر أن ماركس يعيش حالة من الصراع الداخلي بين القلب والعقل، فكأن القلب للشرق والعقل للغرب، فإن نطق القلب وسكت العقل انهمز الفكر الاستشراقي، واختفت - ما قد تبدو - ملامح مركزية أوربية، لكن ما إن ينطق العقل حتى ينتصر هذا الفكر الاستشراقي وهو انتصار الفكر الماركسي للضرورة التاريخية⁽¹⁾. ثم يضيف ماركس قائلاً: "حتى وإن كنا لا نعرف شيئاً عن تاريخ هندوستان الماضي... وكل تاريخها الماضي إذا كان عبارة عن شيء، فهو ليس غير تاريخ فتوحات متعاقبة، تعرضت لها الواحدة تلو الأخرى، ولا وجود لتاريخ المجتمع الهندي، ونحن على كل حال لا نعرفه، وما نسميه بتاريخه إنما هو مجرد تاريخ غزاة تعاقبوا الواحد تلو الآخر، وأسسوا إمبراطورياتهم على القاعدة الهامدة لهذا المجتمع الجامد، الذي لا يبدي أي مقاومة، ولهذا تلخص المسألة لا فيما إذا كان يحق لبريطانيا أن تستولي على الهند، بل فيما إذا كنا نفضل نحن أن يستولي على الهند الأتراك أو الفرس أو الروس لا البريطانيون".⁽²⁾

يُقر ماركس في هذا الرأي بأنه لا يعرف شيئاً عن تاريخ هندوستان، وأن كل ما يعرفه عن شعبها أنه شعب تعرض للكثير من الغزو خلال تاريخه، ولذلك ينفي أي تاريخ حضاري للهند، وهذا أمر غريب من مفكر مثل ماركس أن ينفي ثقافة شرقية عريقة كالثقافة الهندية، فهل عدم معرفة ماركس للتاريخ يجعله ينفي تاريخ الهند، فكل تاريخها في نظره هو تاريخ عسكري وحربي يؤرخ لغزاة هذا المجتمع الخامل.

يتضح من ذلك أيضاً، أن ماركس وانجلز يعتبران المجتمع الهندي بدون تاريخ، أو على الأقل ليس لذلك المجتمع أي تاريخ معروف، لأن الهند لم تعرف طبقات بل أقليات إثنية ودينية، تصارعت على السلطة، وحافظت في ذات الوقت على الظروف الاقتصادية الأساسية التي دعمت الجمود الاجتماعي. من هنا يبرز الدور التاريخي للرأسمالية البريطانية في الهند، ذلك أن دخولها إليه حطم سيطرة

(1) أنظر مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب، مرجع سابق، ص 19.

(2) ماركس و إنجلز: في الاستعمار، مصدر سابق، ص 63-64.

نمط الإنتاج الآسيوي عبر خلق الملكية الخاصة للأرض، وخلق صراع على المصالح من أجل بث الصراع الطبقي⁽¹⁾. وفي ذلك يُشير ماركس كذلك إلى أنه: "يتعين على بريطانيا أن تؤدي في الهند رسالة مزدوجة تدميرية وبناءة، القضاء على المجتمع الآسيوي القديم من جهة، وإرساء الأساس المادي للمجتمع الغربي في آسيا من جهة أخرى"⁽²⁾.

معنى ذلك أن رسالة البريطانيين الحضارية في الهند لها وجهين: وجه سلبي وآخر إيجابي، يظهر الوجه السلبي في تدهم الأنساق الثقافية و البنى الاجتماعية للمجتمع الهندي، ويظهر الوجه الإيجابي في إحلال بنى ثقافية واجتماعية واقتصادية غربية مكانها. ثم يضيف ماركس قائلاً: "ولكن مهما كان من المؤسف من وجهة نظر المشاعر الإنسانية البحتة، رؤية خراب وتفكك هذه الكثرة التي لا عد لها من التنظيمات الاجتماعية السلمية البطيكية... فإنه يتعين علينا مع ذلك أن لا ننسى أن هذه المشاعات القروية الهائلة كانت على الدوام - مهما بدت بريئة لا ضرر منها- أساساً مكيماً للاستبداد الشرقي، وأنها كانت تحصر العقل البشري في أضيق الإطارات جاعلة منه أداة طيعة للأوهام، مقيدة إياه بسلاسل عبودية القواعد التقليدية، حارمة إياه كل عظمة، وكل مبادرة تاريخية"⁽³⁾. يبدو مما سبق أن الانجليز يقومون في الهند بمهمتين مترابطتين، هما: إزالة النظام التقليدي، وإحلال محله الأسس المادية لمجتمع غربي في آسيا، رغم ما يبدو في لغة ماركس من حسرة وألم على شعب عانى طيلة حياته من نير الاحتلال المتواصل، فقد اعتبر ماركس الاستعمار الغربي لشبه القارة الهندية، فرصة مواتية لزعة سكون بنيتها الاجتماعية.

إضافة إلى ما تقدم، فإن نص ماركس حول الهند يحتوي على معاني متناقضة، فهو يحاول طمس الحقائق التاريخية للهند لإثبات نسقه الفلسفي، فكان يتفق مع هيجل حول ثبات المجتمع الهندي وحاجته إلى من يث فيه الحيوية، حيث يمثل دخول الانجليز إلى الهند عملاً مشروعاً لأنه يجسد خط التاريخ الغائي. ولا شك بأن لكل استعمار أثاره السلبية التي يجب قبولها كتضحية من أجل الوصول إلى ما هو أبعد، وإزالة كل عراقيل التقدم، وبذلك فإن جرائم الانجليز ومصالحهم، قد تغتفر إذا ما راعينا الوصول إلى الهدف النبيل. وربما هذه محاولة من ماركس لتبرير ما قد يثير خطابه من غضب، لاسيما بعد تأسفه عما قد يثيره الاستعمار من آلام، ثم يؤكد بأن هذا جزء من غائية تاريخية حتمية، باعتبار أن الخسائر ملازمة لأي ثورة، فلا يجب التأسف والتحسر على احتلال الدول الأوروبية لدول الشرق ما دامت الغاية نبيلة، وهي مساعدة هذه الدول في التقدم، حيث أن لا بناء إلا بعد تحطيم ولا إحياء إلا بعد تدمير، ولن يضع الشرق رجله على سكة التقدم والتحضر، إلا بعد تدمير هياكله وركائزه، ومن ثم تكون رسالة الغزو الأوربي حضارية تقدمية.

انطلاقاً مما سبق، أيد ماركس و إنجلز غزو أمريكا للمكسيك سنة 1849، لأن شعب المكسيك حامل و كسول، ولا بد من دفعه نحو التقدم بالقوة، وذلك بتحطيم هياكله البالية، ولكن موقف ماركس وإنجلز يختلف عندما يتعلق الأمر بشعب أوربي يبحث عن حقه في تقرير مصيره فقد أكد ماركس عند صياغته للإعلان المؤيد لاستقلال بولونيا عن روسيا في أكتوبر 1863 إثر إقدام جيوش القيصر الروسي على سحق التمرد البولوني، قائلاً: "إن شعباً يضطهد شعوباً أخرى لا يمكن أن يكون حراً"⁽⁴⁾.

(1) أنظر سالم يفوت: حفريات الإستشراق، مرجع سابق، ص 59.

(2) ماركس و إنجلز: في الاستعمار، مصدر سابق، ص 64.

(3) نفسه، ص 29-30.

(4) ماركس: في الاستعمار، نقلاً عن سالم يفوت: حفريات الإستشراق، مرجع سابق، ص 57.

مما يعني رفض ماركس لقمع الجيش الروسي، حرية الشعب البولوني، واتهامه للشعب الروسي بالعبودية لأنه يرفض الحرية للآخرين، كما أكد ماركس رفضه اضطهاد الانجليز لايرلندا مؤكدا نفس المعنى السابق بقوله: "إن الشعب الذي يضطهد شعبا آخر إنما يضع قيوده بنفسه"⁽¹⁾.

من هذا وذاك يظهر أن ماركس وإنجلز يؤمنان بأن الحق في الاستقلال والحرية وبناء الدولة الوطنية هو حق من حقوق الشعوب الأوروبية، أما المجتمعات الأخرى فقدورها التبعية لأوروبا.

وفي نفس السياق دعا إنجلز الانجليز المحتلين للهند إلى تشكيل فرق عسكرية من السكان المحليين، يشبه ما فعلته فرنسا في الجزائر حين أنشأت فيلق الزاوية، فأكد متسائلا: "لماذا لا تتوصل الحدود في شمال غربي الهند إلى تنظيم القوات المتواجدة فيها حاليا في فيلق مؤهل لأن يكون بالنسبة إلى الجيش الانجليزي ما كانه بالنسبة إلى الفرنسيين الطرادة"⁽²⁾ والزاويون"⁽³⁾.

من الواضح أن إنجلز يتحدث هنا وكأنه خبير عسكري، أو مستشار حربي يدعو إلى إعادة ترتيب شؤون الجيش الانجليزي في الهند دون أي اعتبار لكونه جيش احتلال، لأرض غير أرضه.

3.2.5 نموذج مصر:

قبل الحديث عن ملامح المركزية الأوروبية في موقف إنجلز من القضية المصرية يمكن الإشارة أولا إلى الثورة العرابية، وهي ثورة قادها أحمد عرابي في فترة (1879، 1882) ضد الخديوي توفيق، والتدخل الأجنبي، وقد تكللت هذه الثورة بوضع دستور للبلاد وإنشاء برلمان وتأسيس الحزب الوطني الذي كان يهدف إلى استقلال مصر وإقامة نظام دستوري.

فقد كان أحمد عرابي مناهضا للتدخلات الأجنبية المستمرة في الشؤون المصرية، فكان بمثابة الزعيم الوطني المناهض للنموذج الأجنبي، رافعا شعار مصر للمصريين، ومن ثم بدأت الثورة بإقالة الخديوي إسماعيل، وتنصيب الخديوي توفيق مكانه، الذي عمل هو الآخر بمساعدة فرنسا وإنجلترا على القضاء على الثورة.

وفي هذا الصدد، جاء في رسالة أرسلها إنجلز إلى ادوارد برنشتين⁽⁴⁾ في 9 أوت 1882 يناقش فيها بعض حيثيات القضية المصرية مؤكدا فيها ما يلي: "يُحْتَل إلي أنك تقف في المسألة المصرية موقفا مفرطا في حسن النية، مما يُسمى الحزب الوطني، نحن نعرف القليل عن عرابي، ولكنه يُمكن المراهنة بعشر مقابل واحد، على أن هذا باشا(هكذا) عادي، لا يريد أن يتنازل عن تحصيل الضرائب لطواغيت المال، لأنه حسب عادة شرقية طيبة، يفضل أن يدفنها في جيبه بالذات"⁽⁵⁾.

يبدو من نص هذه الرسالة، أن إنجلز لم يكن مناصرا لثورة الشعب المصري بقيادة أحمد عرابي ضد التدخلات الأجنبية في الشؤون المصرية، وإثقال كاهل المواطنين بالضرائب، كما يبدو أنه رافض لسياسة الحزب الوطني المصري الذي كان يطمح لبناء الدولة الوطنية

(1) ماركس: في الاستعمار، نقلا عن ميشال نوفل، المركزية الأوروبية وعلاقة الشرق بالغرب في الفكر الماركسي، مجلة الفكر العربي العدد 31، 1983، ص 173.

(2) الطرادة والزاويون فيلق عسكري فرنسي في الجزائر، أغلب مجنديها من السكان المحليين، عرفا بتنظيمهما الكبير.

(3) ماركس وإنجلز: الماركسية والجزائر، مصدر سابق، ص 51.

(4) ادوارد برنشتين (1850، 1932): سياسي اشتراكي ألماني، يعتبر مؤسس اتجاه الاشتراكية التدريجية، وهو اتجاه اشتراكي يرفض الاشتراكية الثورية، ويرى بأن

الاشتراكية يمكن تحقيقها بالوسائل السلمية كإصلاح التشريعي التدريجي.

(5) ماركس وإنجلز في الاستعمار، مصدر سابق ص ص 191-192.

المصرية، مع علم إنجلز برغبة الإنجليز في استعمار مصر، وتأمين استثماراتهم وضمان سياستهم التوسعية، والسيطرة على قناة السويس و رغم تأكيد إنجلز على عدم معرفته بأحمد عرابي إلا أنه يجزم بأن هدف عرابي هو جمع الضرائب والمال بصفة عامة، وفاء منه لتقليد شرقي قديم يعتقد بأن الشرقي محب للاكتناز وجمع الأموال، وهنا تظهر بوضوح مركزية إنجلز الأوربية ودعومه المضمحل للاحتلال الأوربي لمصر، ضد حركة التحرر الوطنية المصرية، مما يظهر تأثير إنجلز بالفكر الاستشراقي الذي يرى بأن الإنسان الشرقي عمومًا محب للاكتناز وجمع المال، وكأن الأوربي زاهد في المال، وهذا ما يؤكد برأينا ازدواجية في النظر، تعطي الحق لدعاة مركزية ماركس الأوربية.

4.2.5 نموذج الصين:

في مقال لماركس تحت عنوان: الثورة في الصين وفي أوربا في جريدة نيويورك تريبيون الأمريكية بتاريخ 14 جوان 1853 كتب ماركس عندما تحدث عن حرب الأفيون الأولى - التي شنها الإنجليز ضد الصين في ما بين (1839-1842) - يقول: "إنه من نافلة القول تقريبًا الإشارة إلى أن الإمبراطور وحاشيته من الموظفين الكبار الكسالى، فقدوا سيادتهم بقدر ما كان الأفيون يحقق السيادة على الصينيين بحيث يتراءى كما لو أن التاريخ أراد أن يُسكر بادئ الأمر هذا الشعب بكامله قبل أن يستطيع إنهاضه من بلاهته الوراثية"⁽¹⁾.

تبدو عقدة التمركز الأوربي هنا واضحة، مما جعل ماركس يصف شعبًا بكامله بالبلاهة الوراثية، أي بالضعف الفكري والثقافي الطبيعي، وهو ما يتعارض مع أبسط أدبيات البحث العلمي والبحث التاريخي الموضوعي. فالصين كانت حتى مطلع القرن السادس عشر أكثر تقدمًا من المجتمع الغربي، ولم ينحسر تقدمها إلا مع تطور الرأسمالية⁽²⁾. ولنتأمل هذا النص الماركسي: "فالصين حققت انطلاقتها الكبيرة بفضل المدفع البريطاني عام 1840، هذا المدفع الذي حطم سلطان الإمبراطور وأجبر المملكة السماوية على الاتصال بالعالم الأرضي، لقد كانت العزلة التامة الشرط الأول لبقاء الصين القديمة، وحين انتهت هذه العزلة نهاية عنيفة بفضل إنجلترا، فلم يكن بد أن يترتب الانحلال على ذلك بصورة مؤكدة مثلما يحدث لأي مومياء محفوظة في نعش مغلق بأحكام حيث تجعل في اتصال مع الهواء الطلق"⁽³⁾.

إن المتأمل في هذا الموقف يلاحظ بجلاء إقرار ماركس بدور الاستعمار الأوربي في إيقاظ المجتمع الصيني، فالاحتلال الإنجليزي كان باعث الصحة في الصين، وهو الذي أيقظها من أحلامها التي كانت تسبح فيها منذ آلاف السنين، وهي في ذلك تشبه المومياء المحبوسة داخل صندوق مغلق، وفضل الأوربيين يظهر في فتح الصندوق وتعريض المومياء للهواء، أي ببث روح الحياة فيها من جديد. ونلاحظ هنا دائما اعتقاد ماركس، بأن الاستعمار الرأسمالي الأوربي يقوم بمهمة تقدمية غير واعية عندما يحطم البنيات ما قبل الرأسمالية في المجتمعات الشرقية.

لقد كانت النظرة الماركسية إلى الصين ترى أنها بلد غارق في الرجعية والتخلف والمحافظة منذ آلاف السنين، بسبب عدم خضوعها لتصارع الطبقات إضافة إلى خضوعها للاستبداد السياسي الأبوي. وهو ما أكدته ماركس بكل وضوح في الكثير من نصوصه، على غرار هذا النص مثلاً، الذي اقتطفناه من البيان الشيوعي حيث يصرح قائلاً: "تجرُّ البرجوازية إلى تيار المدنية كل الأمم حتى أكثرها

(1) ماركس وإنجلز: في الاستعمار، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1965، ص 358.

(2) أنظر، ماركس، إنجلز، لينين: في المجتمعات قبل الرأسمالية، نصوص مختارة من ماركس وإنجلز ولينين، ترجمة فؤاد أيوب، وزارة الثقافة، دمشق، 1994، ص 166.

(3) ماركس وإنجلز: في الاستعمار، ترجمة فؤاد أيوب، مصدر سابق، ص 19-20.

هجمية تبعا لسرعة تحسين جميع أدوات الإنتاج وتسهيل المواصلات إلى ما لا حد له... وتجبر البرجوازية كل الأمم تحت طائلة الموت أن تقبل الأسلوب البرجوازي في الإنتاج... وأخضعت البرجوازية الريف للمدينة، كذلك أخضعت البلدان الهمجية ونصف الهمجية للبلدان المتقدمة، الأمم الفلاحية للأمم البرجوازية، الشرق للغرب⁽¹⁾.

يحمل هذا النص فكرة أساسية تتمثل في أن ماركس يعتقد بأن البرجوازية الأوربية بنمط إنتاجها سوف تعمم ذلك النمط على كل الأمم، وخاصة الأمم الشرقية، وتقودها نحو النهضة والتطور. وقد نتساءل هنا: أليس توصيف ماركس للشعب الصيني بالمومياء نتيجة من نتائج العقدة المركزية الأوربية؟

5.2.5 نموذج فارس:

في حديث ماركس عن الاستبداد الشرقي يقول: " لا يوجد في العالم استبداد أكثر كاريكاتورية ولا أكثر عبثية و طفولية من هذا الذي يمارسه شاه زمان أو شهريار، في ألف ليلة وليلة، وزعيم المغول رجل قصير البنية، أصفر البشرة، هرم، يرتدي بزة مسرحية مرصعة بالذهب، يشبه راقصي الهند، بل يشبه دمية مغطاة بالزخارف والنياشين، يظهر ليضحك أتباعه ويملاً قلوبهم بالبهجة"⁽²⁾. يؤكد هذا النص نوعا من النظرة الاستعلائية الماركسية، ونوعا من السخرية والاستهزاء من كل ما هو شرقي، ويظهر ذلك في وصفه لزعميين شرقيين بصفات تتجلى فيها العنصرية والاستعلاء واحتقار الآخر.

ففي مقال ماركس يحمل عنوان "إيران والصين" منشور في نيويورك تريبون، بتاريخ 5 جوان 1857 يكتب ماركس ما يلي: "إن الضباط الإنجليز والفرنسيين والروس قد جربوا كل بدوره أن ينظموا الجيش الإيراني، وتعاقبت الأنظمة، لكن كل نظام منها أخفق بدوره، من جراء الحسد والمكائد والجهل والجشع والفساد، هذه الصفات التي كانت من شيمة هؤلاء الشرقيين الذين يراد تكوينهم كضباط وجنود أوروبيين"⁽³⁾.

يمكن لأي شخص عاقل أن يستنتج بقراءة بسيطة لهذا النص أن عدم انتظام الجيش الإيراني بصفة متطورة، كان بسبب طبيعة عناصره الشرقية، التي ترتبط بالفساد والجهل والجشع، فأين نضع التفسير الاقتصادي والطبقي الذي طالما كان شعار ماركس وأساس تحليلاته؟، ألم يرقم في هذا المقال بتعميمات غير علمية، تنم عن تأثره بالمركزية الأوربية؟

6. تعقيب

من خلال ما تقدم، يمكن أن نقدم هذه التقييمات على الوجه الآتي:

أ- إن ماركس يُسفه الأنماط الحياتية للآخرين من غير الأوربيين، وتقزيم كل أطروحة من شأنها أن تمس أطروحته حول المسار الحتمي للإنسانية، فهو لا يعترف بوجود أنماط اقتصادية واجتماعية وثقافية تختلف عما ذهب إليه في أطروحته، حيث أن الدارس لتاريخ

(1) كارل ماركس، فريدريك إنجلز: مختارات، دار التقدم، موسكو، ج1، 1975، صص 55-56.

(2) Roy Preiswerk. Et Dominique Perrot. Ethnocentrisme Histoire. Paris 1975. p.247.

(3) ماركس وإنجلز: في الاستعمار، ترجمة فؤاد أيوب، مصدر سابق، ص126.

الكثير من المجتمعات مثل المجتمع العربي، يدرك بأن تلك المجتمعات لم تعرف في تاريخها المرحلة المشاعية التي تكلم عنها ماركس، ولم تعرف كذلك مرحلة العبودية ولا الإقطاعية ولا الرأسمالية كما عرفها الأوروبيون .

ب- إن الأحكام التي وصل إليها ماركس لم تكن نتيجة لتجارب وخبرات شخصية تستند إلى الواقع والتاريخ، فهو لم يزر هذه المجتمعات، وحتى في زيارته العلاجية التي قام بها للجزائر والتي قضى فيها 72 يوما مريضا ومنطويا لم يخالف فيها الجزائريين إلا نادرا، وهو ما يجعل أفكاره وآراءه أقرب إلى خطابات معدة سلفا، تنطلق من كتابات بعض المستشرقين والفلاسفة أمثال مونتيسكيو وهيجل، أي مستندا إلى عيون الآخرين، وهذا ما قد يسيء إلى ماركس كفيلسوف عالمي ومُنظر للأطروحات اليسارية التي تدعوا إلى العدالة والمساواة.

ج- إن نظرية ماركس في تفسير التاريخ كانت مبنية على الظرف الأوربي الذي كان يعيش فيه، وهذا الظرف لا يصح تعميمه على العالم، وهو ظرف غير قادر على تفسير مراحل التاريخ عموما، فهل يمكن تفسير ثورة نبي الإسلام مثلا، والتغيير الكبير الذي أحدثته في عالم العرب بقوى الإنتاج وأدوات الإنتاج كما يتحدث ماركس؟. لأنه يقلل من قيمة الفكرة في تغيير الأمم والمجتمعات. فالتجارب الشيوعية الناجحة، نجحت في بيئات مختلفة عن الشروط الموضوعية التي تحدث عنها ماركس، ولم تنجح في مجتمعات صناعية.

هـ - كما تنبأت الماركسية بالثورة الاشتراكية في أوروبا الغربية، وبالضبط في المجتمعات الصناعية في فرنسا وإنجلترا بالخصوص، التي طالما اعتبرها مثلا للدولة الرأسمالية، إلا أن الثورة فيما بعد لم تحدث في هذين الدولتين، بل ظهرت في روسيا والصين، وهما لم يعرفا مرحلة اكتمال الرأسمالية.

و- ثمة إذن نزعة تطويرية تستند إلى تصور غائي تُعالج التاريخ كسلسلة من المراحل الحتمية، مع اعتبار ما يمر به الشرق حاليا، مرحلة سابقة على التاريخ الحقيقي، نظرا لركود حضارته وانغلاقها، بالمقارنة مع الحضارة الغربية، ونظرا للطابع السلطوي الاستبدادي لأنظمتها السياسية، ويتم التأكيد بالخصوص على الإسلام باعتباره يستوفي حسب عدة دراسات كل نقائص العقلية الشرقية.⁽¹⁾

ز- يعتبر كل من ماركس وإنجلز، ووفاء منهما لفكرة هيكلية بأن الاستعمار أداة لنقل المجتمعات الشرقية إلى الحضارة والتاريخ، ولكن الأمر يتغير عندما يتعلق بمجتمع أوربي، ومثال أيرلندا خير دليل على ذلك حيث ينافح ماركس عن حق الشعب الأيرلندي في نيل حريته واستقلاله، وهذا ما ينم عن مركزية أوربية واضحة وسياسة الكيل بمكيالين تجاه موضوع واحد، حيث يدخل التحليل الاقتصادي لما يتعلق بمجتمعات الشرق، اقتصاديا صرفا يهدف لخدمة المصالح الأوربية خدمة لأيديولوجيا معينة، حتى لو أن هناك بعض الإدانة لنتائج استعمال القوة المفرطة، فهي إدانة رمزية فقط .

ح- اتهم ماركس وإنجلز بتقديم تبرير للاحتلال الأوربي لمجتمعات غير أوربية، لاسيما أنه لم يعتبر مشكلة الاستعمار مشكلة سياسية قومية إلا في الحالة الأيرلندية، وهذا المثال أوربي، فهو بالتالي يؤكد الحدود الأوربية لرؤية ماركس وإنجلز .

ط- يبدو تناقض ماركس واضح مع فكرته القائلة بأن المادة تصنع الفكر، وأن القيم والبني الثقافية ما هي إلا انعكاس للنمط الاقتصادي السائد، حيث أكد بنفسه بأن المادة لم تؤثر على وعي الجزائريين، فكانوا يتعاملون مع بعضهم بمنطق المساواة، ومن ثم

(1) أنظر: سالم يفوت: حفريات الاستشراق، مرجع سابق، ص52.

اضطر ماركس نفسه إلى الخروج على قواعد تصوره المادي للتاريخ، حتى يفهم واقعة واحدة من وقائع الحياة الإسلامية، عند وصفه لحال بعض مرتادي مقهى مغربي في الجزائر، فرغم ما يبدو من اختلاف في مستواهم المادي من خلال مظهر ملابسه، إلا أن ذلك لم يؤثر أبداً في المساواة المطلقة التي يظهرها في علاقاتهم الاجتماعية.⁽¹⁾

ي - كان ماركس يؤمن بالنمط الاقتصادي والتناقضات بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج كمحرك للتغير الاجتماعي، وهو عامل داخلي، ولكن حين تكلم عن الشعوب الآسيوية، رأى بأن التغير يحتاج إلى تدخل عوامل خارجية، وهذا قد يوجه الباحث إلى أثر المركزية الأوروبية التي انتهت إلى تسويق التدخل الغربي في آسيا وإفريقيا وأمريكا، وذاك بحجة تحضيره ونقله إلى الحداثة.

ك - كان نمط الإنتاج الآسيوي إحدى الأدوات الماركسية في النظر إلى المجتمعات الشرقية وغير الشرقية، فهو حين بدأ تحليله لشروط إنتاج الحياة المادية في الشرق، كان يتبنى في الواقع منطق التفكير العلمي، ولكنه جانب التحليل العلمي والموضوعي حين رأى هذه الدرجة لا تتغير ولا تعقبها درجة أكثر تطوراً إلا بفعل قوى خارجية، وعندئذ جانب ماركس تحليله المادي بالذات، وهوى إلى تفسير أيديولوجي يرى في سيطرة أوربا على الآخر مهمة إحيائية للمجتمعات الشرقية من جمودها التاريخي، وقد كان ماركس في ذلك مساهماً للمناخ الفكري في أوربا في القرن التاسع عشر.⁽²⁾

ل - إن بعض النصوص الماركسية، ولاسيما تلك التي تتحدث عن ركود واستبدادية المجتمعات الشرقية، في مقابل حركة الغرب، تحيلنا مباشرة إلى هيكل وأثره في كتابات ماركس، حيث تحمل الماركسية سرديات ذات تمركز أوربي واضح، تقوم على افتراض مسارات ذات طابع أوربي تسيير عليها كل المجتمعات البشرية، وهو ما جعل المؤرخ البريطاني الماركسي إريك هوبزبوم يقول: "منح إنجلترا وماركس تاريخ الغرب ميزة أن يكون هو نموذج ومثال التطور العام للإنسانية والبشرية، مستثنياً من تحليلاته بشكل خفي وغير مباشر، تاريخ آسيا والشرق الأدنى (ويمكن أن نضيف وكل الشعوب غير الأوروبية) لقد استخدم الغرب كمقياس يقيسان به بقية العالم، فما كان أوربا ومؤقتاً أصبح عالمياً، ولذا أخرجت المجتمعات غير الغربية عامة، ومجتمعات السود بشكل خاص من إطار التحليل الماركسي".⁽³⁾

يتضح من ذلك أن ماركس وإنجلترا قد أعطيا تاريخ الغرب مكانة مركزية خاصة، وجعلاً منه المثال الذي يجب أن يُحتذى، وقد كانا في أغلب كتاباتهما حول المجتمعات غير الأوروبية يؤكدان على ضرورة أوربة شعوب كالهند والصين .

م - إن تطور التقنية والصناعة - حسب ماركس وإنجلترا - لا يمكن أن يتحقق إلا في إطار القيم الغربية، أي أنهما منحاً بعداً ثقافياً عرقياً للقدرة على تطوير التقنية والصناعة، ومن الواضح أن ماركس وإنجلترا لم يستوعبا رؤية وفهم إمكانية أن تصبح مجتمعات غير غربية مجتمعات حديثة أو صناعية فنتيجة لجهلها بالتاريخ ربما لم يسمعا بالتطورات التقنية المذهلة في الصين، سواء في صناعة الورق أو البارود أو صناعة السفن التي فاقت نظيرها في الغرب في القرن السادس عشر.⁽⁴⁾

(1) أنظر ماركس وإنجلترا: الماركسية والجزائر، مصدر سابق، ص 123-124.

(2) أنظر فؤاد خليل: الماركسية في البحث النقدي، مرجع سابق، ص 190-191.

(3) أنظر، عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مرجع سابق، ص 235.

(4) أنظر نفسه، ص 238-239.

ن- لقد توصل ماركس وإنجلز إلى أن الاحتلال الأوربي، هو الطريقة الأساسية لتحديث أي أن الغزو الغربي هو القيمة التي يجب أن تسددها المجتمعات الشرقية كضريبة لدخول الحداثة وتجاوز ظلام الاستبداد الشرقي، والنمط الإنتاجي الآسيوي، ونتيجة لذلك لم يكن ماركس يهتم بضحايا الغزو الأوربي للمجتمعات الشرقية من منطلق أن الاحتلال الأوربي في صالح المجتمعات الشرقية، وكأن الشرقيين قد حُجر على عقولهم، والاستعمار هو الذي يعرف مصلحتهم، فطالما كان الغزو يحرك التاريخ في الاتجاه الصحيح فمرحبا به.

س- إن هذه الرؤية المتمركزة حول الذات الغربية التي تنكر تاريخ الآخرين وترى الاستعمار الغربي باعتباره آلية الوحيدة لتحريك التاريخ في العالم غير الغربي، وإدخال التقدم عليه، هذه الرؤية لا تختلف في جوهرها عن الرؤى العنصرية التي استخدمت لتبرير الاستعمار الغربي وعمليات النهب الاستعماري. وهو ما يجعلنا نتساءل حول مدى عالمية أفكار مؤسسي الاشتراكية: ماركس وإنجلز، فقد كان القالب الغربي واضحا في تفسيراتهما الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

ومما يلاحظ في هذا الصدد، أن بعض المثقفين العرب الماركسيين لا يجدون غضاضة في أن يصرحوا بتلبس الماركسية ببرائث المركزية الأوربية وهو ما يؤكد أحدهم بقوله: "إن الماركسية (الموجودة حقيقة) لم تتخلص تماما من التشويه الأوربي المتمركز، وأن التيارات السائدة في التفسير الماركسي تشارك إذن غيرها من المذهب في علم الاجتماع في هذه السمة العامة للثقافة الغربية. ينتج من هذا الملاحظة أن بناء نظرية مادية تاريخية تتسم بطابع عالمي حقيقي يتجاوز حدود التمرکز الغربي ويخاطب فعلا الإنسانية بكليتها لا يزال مهمة لم تستكمل بعد"⁽¹⁾.

يبدو مما تقدم، أن ماركس وإنجلز لم يستطيعا التجرد، من ثوب المركزية الأوربية الذي لازم أغلب المفكرين الغربيين، فالماركسية عموما لم تخرج من الإطار العام لخط التقدم الغربي، وانطلاقا من هذا، لا يمكن القول بأن الماركسية فلسفة إنسانية لا تاريخية، لأنها غارقة في المركزية الأوربية، كما شاهدنا، فهي نظرية بُنيت على الظرف الأوربي زمانا ومكانا، ويظهر ذلك من خلال اعتمادها على نمط الإنتاج الأوربي كمقياس للحكم على المجتمعات، على الرغم من أن الكثير من المجتمعات الشرقية لم تعرف ما جاء في نظرية نمط الإنتاج الآسيوي، وخضعت الحياة الاقتصادية فيها لقوانين حركة رأس المال.

7. خاتمة:

يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة، النتائج الآتية:

- إن المركزية الأوربية ضرب من المرجسية المتشددة، التي تؤكد تفوق وتميز مجتمعات أوربا على غيرها من المجتمعات البشرية، بسبب خصائص توجد فيها دون غيرها.
- إن لنمط الإنتاج الاقتصادي تأثير كبير على حركية التاريخ، وتعتبر نظرية نمط الإنتاج الآسيوي، إحدى بؤر التوتر في علاقة الأنا بالآخر، عند ماركس وإنجلز، وهي النظرية التي وجهت لهما فيها أصابع الاتهام بالمركزية الأوربية.
- تقوم نظرية نمط الإنتاج الآسيوي على فرضية انغلاق مجتمعات الشرق، بسبب تحقيقها لاكتفائها الذاتي، أو ما يسمى باقتصاد الكفاف، الأمر الذي أدى إلى غياب كل أشكال التبادل، وكل أنواع الملكيات، باعتبار أن ملكية الأرض تعود إلى السلطة المستبدة. كل هذا أدى إلى انغلاق تلك المجتمعات الشرقية على نفسها، وبالتالي غياب أي آلية لتحريك التاريخ.

(1) سمير أمين: التمرکز الأوربي نحو نظرية للثقافة، مرجع سابق، ص 85.

- يعتبر أنصار نظرية نط الإنتاج الأسوي بأن النشاط الاقتصادي الحقيقي لم يُعرف إلا في أوربا.
- أعطى ماركس وانجلز أوربا مكانة مركزية في تاريخ الإنسانية، فكانا يُلحان على ضرورة أوربة بلدان الشرق، باعتبار ذلك هو الأداة الأساسية للتحديث.
- إن آراء ماركس وانجلز حول بعض القضايا السياسية، لاسيما صراع شعوب آسيا وإفريقيا مع دول الاحتلال الأوربية، تحمل بين طياتها مركزية غربية واضحة، وهذا ما لاحظناه في موقفهما من عدة قضايا: كقضية الجزائر، والهند، والصين، ومصر، وفارس.
- إن مضمون هذه الدراسة لم يكن بدافع من رد فعل ضد المركزية الغربية، من مركزية أخرى شرقية تنتصر للشرق ضد الغرب، وبالتالي فما كتبناه لم يكن بدافع التحامل الإيديولوجي، ولاسيما أن ماركس وجد من يدافع عنه من المفكرين العرب والشرقيين عموماً: أمثال المفكر الهندي أحمد إجماز، و المصري سمير أمين، والسوري صادق جلال العظم، والبناني مهدي عامل، الذين نافحوا عنه بشدة، رافضين كل تهم الاستشراق والمركزية الغربية التي وجهت إلى ماركس، كما وجد آخرون التمسوا له الأعذار، في ما قد يبدو من مركزية غربية حملتها بعض مؤلفاته، حيث أرجعوا ذلك إلى جهله بتاريخ مجتمعات الشرق، إضافة إلى تأثره بآراء مونتيسكيو وهيجل حول مجتمعات الشرق.
- وهكذا يمكن القول أنه رغم قيمة تحليلات ماركس العلمية، إلا أنه أخلط الجانب السياسي و الأيديولوجي مع الجانب العلمي، وهذا ما أدى إلى ظهور بعض ملامح المركزية الغربية في كتاباته، وهي الملامح التي قد يظهرها كل بحث علمي رصين، يتجاوز الأبعاد الأيديولوجية، ويقوم بحفريات وتفكيك للبنى التي يقوم عليها الفكر الماركسي، متسلحاً بسلاح النقد البناء، الذي يقوم على خلخلة المفاهيم والأصول المعرفية التي يتغذى عليها كل خطاب غربي حول الشرق، ينطلق من مقولة أن الواقع مقولة أوربية في حديث هذا الخطاب عن الأنا والآخر، والشرق والغرب، والتقدم والتخلف.
- إن كل خطاب مهما بدا إنسانياً وعالمياً يُخفي وراءه سلطة وأيديولوجية وإرادة في الهيمنة، وهذا الأمر لا يقلل أبداً من قيمة التحليلات الاجتماعية والاقتصادية التي قدمها الفكر الماركسي.

8. قائمة المراجع:

1. إبراهيم فتحي: الماركسية وأزمة المنهج ، دار الحضارة الجديدة ، ط1، بيروت، 1992.
2. ادوارد سعيد : الإستشراق، المفاهيم الغربية للشرق ، ترجمة محمد عناني ، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
3. بيل أشكروفت وآخرون : دراسات ما بعد الكولونيالية، ترجمة أحمد الروبي وآخرون ، نشر المشروع القومي للترجمة، القاهرة ، ط1، 2010.
4. جيار بن سوسان، جورج لايكا، معجم الماركسية النقدي، ترجمة جماعية، دار محمد علي للنشر، صفاقس، ودار الفارابي، تونس، بيروت، 2003.
5. خوان غويتسولو: الاستشراق الاسباني ، ترجمة كاظم جهاد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (د.ت).
6. روجيه غارودي : كارل ماركس، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب ، بيروت ، ط1، 1970 .
7. سالم يفوت: حفريات الاستشراق ، في نقد العقل الاستشراقي ، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1989.
8. سمير أمين: التمركز الأوربي نحو نظرية للثقافة ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1992.

9. عبد الإله بلقزيز: نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2017.
10. عبد العزيز بوباكير: موريسكي في الجزائر، رحلة كارل ماركس إلى الجزائر، دار ميم للنشر، الجزائر، 2019.
11. عبد اللطيف بن عبد الله بن محمد الغامدي، المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الإنسان، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، 2014.
12. عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1997.
13. عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2006.
14. فؤاد خليل: الماركسية في البحث النقدي، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2010.
15. كارل ماركس، فريدريك إنجلز حول الدين، مختارات فلسفية، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1974.
16. كارل ماركس: نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة راشد البراوي، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1969.
17. كارل ماركس: بؤس الفلسفة، ترجمة محمد مستجير، دار التنوير، ودار الفارابي، بيروت، ط4، 2010.
18. كارل ماركس، فريدريك إنجلز: في الاستعمار، دار التقدم، موسكو، 1971.
19. كارل ماركس، فريدريك إنجلز: مختارات، دار التقدم، موسكو، ج1، 1975.
20. كارل ماركس، فريدريك إنجلز: البيان الشيوعي، ترجمة وتحقيق: العفيف الأخضر، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2015.
21. ماركس، إنجلز، لينين: في المجتمعات قبل الرأسمالية، نصوص مختارة من ماركس وإنجلز ولينين، ترجمة فؤاد أيوب، وزارة الثقافة دمشق، 1994.
22. ماركس و إنجلز: الماركسية والجزائر، ترجمة جورج طرايشي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1978.
23. ماركس وإنجلز: في الاستعمار، ترجمة فؤاد أيوب، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1965.
24. مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر، دمشق، 2002.
25. محمد عادل زكي: نقد الاقتصاد السياسي، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط6، 2019.
- محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، دار الشروق، القاهرة، 2005.
26. مهدي عامل: هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ ماركس في استشراق إدوارد سعيد، دار الفارابي، بيروت، ط4، 2018.

المراجع بالأجنبية:

1.Roy Preiswerk. Et Dominique Perrot, Ethnocentrisme Histoire .ED.Anthropos.Paris1975.

المجلات :

1. ميشال نوفل: المركزية الأوربية وعلاقة الشرق بالغرب في الفكر الماركسي، مجلة الفكر العربي، عدد، 31 بيروت، 1983.